السفينة من جديد

فايز بن سعيد الزهراني

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

وصلى الله على إمام المحتسبين، نبينا وقدوتنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغُرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.

اللهمَّ اهدنا لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. آمين.

وبعد..

لقد باتت مفاهيم الإسلام بحاجة إلى بعثها من جديد في بعض أهل الخير والفضل، ناهيك عن عامة الناس، في زمن بعيد الوقت عن عهد النبوة حيث الإسلام النقي الصافي الذي لا

تشوبه شبهات المنتحلين ولا أقوال المبطلين.. فصار الناس بحاجة إلى تجديد ما اندرس من مفاهيم الإسلام وتعاليمه.

وإنَّ مِن مفاهيم الإسلام التي طرأ عليها تغييرٌ كبير: مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تأثر هذا المفهوم عبر التاريخ الإسلامي بعدد من المؤثرات حتى تشوَّه، وأصبح في نهاية المطاف مِهنة وظيفية يقوم بها أشخاص محددون، يُعيِّنهم وليُّ الأمر أو من ينيبه. ولست هنا بصدد تقييم وظيفة المحتسب المعروفة اليوم، إنما أُقيِّمُ تصوُّر المجتمع حيال هذه الشعيرة.

لقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفهوماً بدهياً، أو بعبارة أخرى: ثقافة اجتماعية سائدة، في عصر الصحابة ﷺ، يقوم به الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والمسؤولون والأفراد، وإنّك لتجدُ الصحابي الفرد يقوم على الملأ فينكر على من هو أكبر منه سنّاً أو قدراً، ولا نكارة على ذلك المحتسب ولا غرابة، فهكذا فهموا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من آيات الله وسنة ورسوله ﷺ.

قال طارق بن شهاب: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة: مروان – يعني ابن الحكم – فقام إليه رجل، فقال:

الصلاة قبل الخطبة! فقال: قد تُرِك ما هنالك. فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أمَّا هذا فقد قضى ما عليه[١].

وفي رواية أخرى لأبي سعيد الخدري ﷺ قال: فخرجت مُخاصراً مروان [يعني مماشياً له ممسكاً بيده] حتى أتينا المُصلَّى، فإذا كثير بن الصلت قد بنى منبراً من طين ولبن، فإذا مروان ينازعني يده، كأنه يجرُّني نحو المنبر، وأنا أجرُّه نحو الصلاة، فلمّا رأيت ذلك منه، قلت: أين الابتداء بالصلاة؟

فقال: لا. يا أبا سعيد! قد تُرك ما تَعلم.

قلت: كلا، والذي نفسي بيده، لا تأتون بخيرٍ مما أعلم. ثلاث مرات، ثم انصرف[٢].

وعن جابر بن سمرة – رضي الله عنهما – قال: شكا أهل الكوفة سعداً [يقصد: ابن وقاص ﷺ] إلى عمر بن الخطاب ﷺ فعزله، واستعمل عليهم عماراً، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق! إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أمَّا أنا والله فإني كنت أصلي بهم

---

(١) أخرجه مسلم: (١/ ٦٩) كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.... حديث (٤٩).

(٢) أخرجه مسلم: (٢/ ٦٠٥) كتاب العيدين، حديث ٨٨٩.

صلاة رسول الله ﷺ ما أُخْرِمُ عنها: أصلي صلاة العشاء فأركُدُ في الأُولَيين، وأُخِفُّ في الأُخْرَيين. فقال: ذاك الظن بك أبا إسحاق[1].

تأمل هاتين الروايتين.. حيث لم يؤاخَذ أبو سعيد الخدري بإنكاره الابتداء بالخطبة من مروان بن الحكم، ولم يؤاخَذ الشاكون من أهل الكوفة بإنكارهم على سعدٍ عدم إحسانه للصلاة. كان الأمر طبيعياً.

والذي ينبغي التأكيد عليه؛ أن فهم الصحابة وتطبيقهم لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لَهُوَ أصلٌ تُفهَم به أدلة الشريعة، وليس ما آل إليه مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اليوم.

وقد كان – دون شك – لاستبداد الحكَّام أثر كبير في تغيُّر مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث مضايقة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والإرجاف بهم، غير أنه مرّ بأخطر منعطفاته في عهدين:

العهد الأول: هو عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان،

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٢٤٥) كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات... حديث (٧٥٥).

حيث جعل من الحَجَّاج سيفاً مصلتاً على رقاب الناس، وسوطاً يضرب به ظهور كبار المسلمين وأئمتهم.

والعهد الثاني: عهد الخليفة العباسي المأمون، ومن بعده المعتصم والواثق، حيث أصدر المأمون مرسوماً يقضي بمنع الناس من ممارسة الإنكار، إلا بعد إذنٍ رسمي يمنحه الخليفة أو من ينيبه لمن شاء. فصارت الملوك والخلفاء تُعاقِب على ذلك بعدُ، إلا قليلا.

لقد تلقَّى هذا المفهوم ضربات عدَّة من أولئك الحكام المستبدين وأعوانهم الذين اشتروا بآيات الله وعهده ثمناً قليلاً، ولم يقوموا بحق العلم الذي تعلموه. وكان لذلك تأثيره السلبي في نفوس الأجيال حيث ضعفت التربية على الحسِّ الاحتسابي العام. ولا أرى – في هذا الإطار – أنْ تؤخذ أقوال الأئمة في تلك الحِقَب معزولة عن سياقها التاريخي والسياسي، ذلك ليتمكن الفقيه من تحليل أقوالهم وتنقيح مناطها بشكل صحيح.

ثم زاد الطين بلَّة أن تَبَنَّت بعضُ الطوائف الضالة كالمعتزلة والخوارج شعارَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهدي غير

هدي الإسلام، فارتبط – بناءً عليه – مفهومُ الخروج على الحاكم الجائر بمفهوم النهي عن المنكر.

إن هذين الأمرين، أعني استبدادَ الحكام وضلالَ الطوائف، كان لهما تأثير كبير في تشوُّه هذا المفهوم العظيم، وأُدرِجت أبوابٌ عديدة ضمن الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالحديث عن الموازنة بين المصالح والمفاسد، والإكراه، ونحو ذلك، مما يعتبر استثناء متعلقاً بظروف معيَّنة، أو مما يعتبر آداباً، فصار مع مرور الوقت أصلاً!

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أنّ من الأغلاط التي شابت مفهوم الاحتساب: خلطه بالخروج عن الطاعة في بعض أحواله، سواء بقصد أو بغير قصد. ولقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة ولي الأمر شيئين غير متناقضين في أذهان السلف الصالح رحمهم الله، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء، وطاعة ولي الأمر شيء آخر. لذلك قال الذهبي في ترجمته للإمام سفيان الثوري: وكان ينكر على الملوك، ولا يرى الخروج أصلاً.[1]

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤٢).

إن علينا اليوم أن نعيد قراءة نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق فهم الصحابة لها والتابعين، بالدرجة الأولى، وفي ضوء تطبيقات أئمة السُّنَّة عبر القرون لهذا المفهوم.

وإن على أهل الخير والفضل والصلاح أن يضطلعوا بهذه الشعيرة، وأن يُشرِعوا أبوابها للناس، كلٌّ واحد يأخذ بنصيبه منها. وأبوابُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة، وأحجامُها مختلفة، ليحققوا الخيرية التي شرّفهم الله بها، وليؤدوا حقها، وليرفعوا من قيمة أمتهم، وليصونوا مجتمعاتهم من أعداء الداخل والخارج على السواء، وليحفظوها من موجبات السقوط.. فلا شيء يحميها مثل الاحتساب، لأن الاحتساب بمثابة الرقابة المجتمعية، ولا تنهض الكيانات بدون عنصر المتابعة والرقابة.

وأول سقوط للمجتمع والأفراد التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السقوط من عين الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وثاني سقوط هو سقوط الهيبة والوجاهة والشرف داخل

المجتمع، وبين الناس، ولهذا لما رجع إبراهيم محمد باشا إلى مصر عائداً من الدرعية بعد تدميرها وقتل علمائها.. رحّب به مرتزقة العلماء في مصر فأعرض عنهم وقال: لستم العلماء! العلماء أولئك الذين رأيتهم في صحاري نجد، فهو يرى لهم شرفا وقدرا.

وثالث سقوط هو سقوط هيبة الأمة من قلوب الأمم الأخرى، مما يجعلها تتكالب عليها وتتألب لتفترسها.. وهذا ما نراه اليوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لن نكون خير أمَّة دون أن يكون الاحتساب هويَّة لنا، وقد قال الله تعالى حاثاً لنا على ذلك: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[آل عمران:١٠٤- ١٠٥].

وقد استعنت الله واستخرته في كتابة هذه الورقات، سائلاً إيَّاه أن ينفع بها كاتبها وقارئها، لعلَّها توضِّح مفهوماً، أو تلفت نظراً، أو تدلُّ على صواب، بأسلوب قريب، وبعبارة سهلة.. كتبت فيها خمسين موضوعاً قصيراً حول مفاهيم احتسابية.

ولا أزعم أنني استوعبت كل شيء يتعلق بالاحتساب، وإنما تطرقت لمواضيع يكثر الحديث عنها، أو تتعدد التساؤلات حولها، مما أفرزها واقعنا المعاصر.

وقد حرصت على الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة فلا تكاد تجد إلا حديثاً احتجَّ به إمام من الأئمة.

فإن وجدتَ – أيها القاريء الكريم – فيها ما ينفعك فالحمد لله على توفيقه، وأسأله المزيد من فضله، وإن وجدت بها تقصيراً أو خطأً أو زللاً، فرحم الله امرئاً أهدى إلي عيوبي، وأصلح الله به خطأي، وأقام به اعوجاجي، فما أريد – وإياك – إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

فايز الزهراني

جمادى الأول ١٤٣٦هـ

Mail: Fa٢٥٢٦@hotmail.com

Twet: @fayz_zhrani

المقتُ الكبير

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

دخل النبي ﷺ فعرفتُ في وجهه أنه قد حضرَه شيء، فتوضّأ وما كلّمَ أحداً، فلصقتُ بالحُجْرة أستمع ما يقولُ، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**أيها الناس! إنَّ الله يقول لكم: مُرُوا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أستجيب لكم**»(١).

تأمل تلك المؤثرات المصاحبة للوصية التي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبلغها للناس.. تأمل كيف ظهرَ ثقل الوصية على وجهه الشريف. تأمل كيف أنه قام يتوضأ. ثم إنه خرج من بيته إلى منبره. ثم نادى في الناس بتلك الوصية.

إنها دلالات على عظيم شأن هذا الأمر الذي يريد أن يتحدث عنه، وخطورة تركه أو التفريط فيه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (٤/ ٣٥٩) كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث (٤٠٠٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣١٢).

سبحان الله!

وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الخطورة وتلك العظمة؟ إلى درجة أنَّ المجتمع المسلم حين يُفرِّط في القيام بهذه الشعيرة يقع عليه غضب الله ومقته؛ فلا يستجيب لدعائهم، ولا ينصرهم على عدوهم الكافر، ولا يعطيهم سؤالهم!!

نعم.

لا بدَّ للمجتمع المسلم أن يقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكركما أمر الله تعالى بذلك. وحين يُفرِّط آحاد الناس في هذا الواجب فإن المنكرات والآثام تتسرب إلى هذا المجتمع، ويتلبس الناس بالرذيلة شيئاً فشيئاً حتى يستسهلوها، وتكثر الخطيئة والمعصية في ميزان المؤمن على حساب الخير الذي وُجِد في قلبه، وتحاصر الشرور ما تبقى من إيمان في قلبه، حتى تجعله كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

كيف يَعْبأُ الله بمجتمع هذه بعضُ أحواله!

كيف يمنح الله أعطياتِه ومحبتَه ونصرتَه لأولئك الذين تَفشَّت فيهم الخطيئة دون أن يبذلوا جهدا في دفعها قبل أن تحلَّ، أو يستفرغوا وسعهم في رفعها بعد أن حلَّت بدارهم!

أيّ قيمة عند الله لهذا المجتمع الذي ساهم بِصَمْتِه وسكوتِه في نشر الشرور وإشاعة الرذيلة.

إنّ الله يمقت المجتمع المسلم الذي رضي أن تنتشر فيه الخطايا، ورضي أن يعلوه أربابُ المنكرات، ولن يكون الله سبحانه ردءاً لهذا المجتمع.. سيجعله في عمايةٍ من أمره، سيترك ظهرَه مكشوفاً لعدوه بسبب جريمة عظيمة تواطأ عليها المجتمع، بترتيب أو بعفوية، حيث سمح لكيان المجتمع أن تنهار أخلاقُه وتضعف ديانته.

لعلنا الآن عرفنا سرّ خطورة تلكم الشعيرة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأدركنا عقوبة التفريط فيها داخل المجتمع المسلم.

قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾[المائدة:٧٨ - ٧٩].

❊❊❊

مجتمعٌ كالسفينة

عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ القائم في حدود الله، والواقع فيها؛ كمَثَلِ قوم استهَمُوا على سفينة، فصار بعضُهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها، إذا استقَوْا من الماء مرّوا على مَن فوقَهُم، فقالوا: لوْ أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً**»(١).

سفينة المجتمع.. تمخر عباب الحياة، وتحمل على ظهرها من يحرسها، كما تحمل من لا يُلقي لها أدنى اهتمام.. كل الناس ينعم في هذه السفينة، ويتقي بها الغرق في لجج البحر الهادر، ويصطلحون على قواعد تُنظّم حياتهم فيها الحياة الكريمة.

في هذا الحديث يُشبِّه لنا رسول الله ﷺ المجتمع بالسفينة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٢٠٦) كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة؟ ... حديث (٢٤٩٣).

يُشبِّه لنا صنفين من الناس الذين يعيشون في هذا المجتمع بصنفين من ركاب السفينة:

الصنف الأول: القائمون في حدود الله، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. شبَّههم النبي ﷺ برُكَّاب السفينة الذين يخافون على السفينة من الغرق.

الصنف الثاني: الواقعون في حدود الله، وهم الذين يقعون فيما نهاهم الله تعالى عنه من المعاصي والخطايا.. شبّههم النبي ﷺ بأولئك الذين يريدون خرْق السفينة، وهم يتذرعون بشبهة تبدو منطقية، وهي أنهم يخرقون الجزء الذي لهم في هذه السفينة، دون أن يعتدوا على الأجزاء التي لسائر الناس في السفينة نفسها. إنهم يرون أنهم بذلك لن يؤذوا غيرهم من الناس داخل السفينة!

هذا توصيف للتفكير الذي يعيشه أهل المعاصي والخطايا في المجتمع المسلم، حيث يرون أنهم بارتكابهم المحرمات إنما يتصرفون في ضوء حرياتهم الخاصة التي لن يطالَ الآخرين أذاها، وأن المنكر حين يرتكبه الفرد فإنما يضرّ نفسه فحسب، ولن يتضرر المجتمع بهذا المنكر.

نبينا ﷺ ينقض هذه الشبهة ويحطّم هذا الزعم ولا يدع مجالاً للعبث بالمجتمع المسلم.

عندما يخرقون السفينة، ويرتكبون المنكرات، فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نأخذ على أيديهم ونمنعهم من هذا التخريق ومن ارتكاب المنكر، وحينها لا نكون حميناهم من غضب الله ومقته وشؤم معصيته في الدنيا والآخرة فحسب، بل نحن أيضاً حمينا المجتمع المسلم من غضب الله ومقته وشؤم معصيته في الدنيا والآخرة.

إننا حين نمنعهم نكون قد حصَّنا المجتمع من تسرُّب المنكر ذاته إلى العديد من أفراده، وحمينا المجتمع من الاستهانة بالمعاصي، وحمينا المجتمع من العقوبات الربانية عليه بشؤم تَنوُّع وتَعدُّد المنكرات بين أفراده.

إن إقامة الحدود والنهي عن المنكرات تحصل بها النجاة لمن يقيمون الحدود، وينهون عن المنكر، ولمرتكبي تلك المنكرات أيضاً.

أمّا الخيار الآخر فهو أن نسكت حال رؤيتنا للمنكر وهو يشيع في أروقة المجتمع، يُلوِّث نقاءه، ويُفسد كيانه بشبهة أننا

لسنا معنيين بهذا الأمر، وبشبهة الحرية الشخصية، وبشبهة وجود مسؤولين عن حماية المجتمع، وبشبهة الفهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] متناسين أمر الله لنا بأن نقوم في حدود الله.. حينها سيهلك المجتمع كله بما فيه نحن لسكوتنا، حيث انتشرت الخطيئة واستعلى المنكر وأذِن الله بهلاك المجتمع على أيدي أبنائه.

قال المهلّب: في هذا الحديث تعذيب العامة بذنب الخاصة. وقال ابن حجر: وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف[1]. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢].

❋❋❋

(١) فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٤٩).

القائم في حدود الله

من هو ذاك الرجل الذي يُنجِّي الله به المجتمع بكافة عناصره من الهلاك والعقوبة الربانية؟

من هو ذاك الرجل الذي يحمي الله به المجتمع من الانهيار الاجتماعي والتحلل الأخلاقي؟

من هو ذاك الرجل الذي يَحُدُّ الله به من انتشار الرذيلة وإشاعة الفاحشة؟

من هو ذاك الرجل الذي يُحصِّن الله به المجتمع من تسلُّل العدو الأجنبي إليه ونفوذ الأفكار الهدَّامة فيه؟

من هو ذاك الرجل الذي يجعل الله به المجتمع قوياً متماسكاً صلباً.. نقيّاً طاهراً متوادّاً؟

لقد لخص نبينا محمد ﷺ وصفه في حديث السفينة الذي رواه النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – بشيءٍ واحد: (القائم في حدود الله).

لم يقل ﷺ إنه الرجل الثري الذي إذا دخل المجالس كان في الصدر منها.

ولم يقل ﷺ إنه العالِم الذي إذا تكلّم أرخت الدنيا أذنها لتسمع دقائق فقهه.

ولم يقل ﷺ إنه سيّد القوم الذي يخضع الناس لسيادته.

بل قال ﷺ: «**القائم في حدود الله**».

ومن هو القائم في حدود الله.. إذن؟

قال المباركفوري في شرحه للحديث الآنف الذّكر: الآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر[1].

الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر باختصار: هو صمّام أمان المجتمع.

يا له من قَدْرٍ عالٍ لهذا الرجل تشهد له نصوص الكتاب والسنّة.

ذلك أنه سببٌ في نجاة المجتمع من عقوبة الله ومقته، وتحصين المجتمع من الأعداء والسفهاء، وتماسك أفراده وقوَّتهم.

الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر رجلٌ عظيم. يجب على المجتمع أن يُقدِّر هذا الأمر، ويحفظ لهذا الرجل مكانته واحترامه،

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي (٦/ ٣٢٨).

ويذبَّ عن عِرْضِه وسمعته، ويسعى في مساعدته على هذه المهمة العظيمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليقوم بها على أكمل وجه وأحسن حال.

بل يجب على أفراد المجتمع أن يكونوا أعواناً لهذا الرجل في مهمته الحراسية، ينتظمون معه في عِقدٍ متلألئ من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر معه وتحت لوائه، ليكوِّنوا سياجاً منيعاً للمجتمع ضدَّ كل ما يسوءه.

ويمكننا من خلال حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن نقيس مدى وعي أفراد المجتمع ومدى تحمَّلهم للمسؤولية الحقيقية في تنمية مجتمعهم ومدى انتمائهم الصادق لمجتمعهم وبلدهم.. وذلك بموقفهم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

فحين تجد أفراد المجتمع سنداً للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، حامين لهم من الأذى، ذابِّين عن أعراضهم في المجالس، مدافعين عنهم في المجامع، فلا معنى لذلك سوى أنهم أفرادٌ واعون صادقون في انتمائهم للمجتمع عميقون في نظرتهم الاجتماعية.. إنهم متقون مصلحون كذلك.

هذا هو المقياس الحقيقي للمجتمع الناهض والتنمية الحقيقية: رجال قائمون في حدود الله أمْراً بالمعروف ونهْياً عن المنكر، ورجالٌ آخرون يساندونهم ويذبُّون عنهم.

فيا لسعادة هذا المجتمع.

❊❊❊

مجتمع من الدرجة الثالثة

مجتمع تتناهشه الأعداء المتكالبة عليه من أطرافه..

مجتمع تكثر فيه الشكوى، ويسود فيه التذمُّر..

مجتمع تتحلّل فيه القِيَم، وتزداد فيه معدَّلات الجريمة، ويتفاخر بعض أفراده بالرذيلة.

مجتمع تتفكك فيه الأسرة، وتتكسَّر بُنْيَتها، وينهار فيه جدار الأخلاق الاجتماعية.

مجتمع عنكبوتي، علاقات أفراده كاذبة.. مؤقتة، وسرعان ما يسطو القريب على قريبه.

إنه المجتمع الذي يرتكب بعض أفراده – وليس كلهم – المنكرات دون رادع من غيرهم ولا خجل ولا خوف.

حين يقع بعض أفراد المجتمع في حدود الله تعالى ارتكاباً للمنكرات، فإنهم يُحْدِثون خرقاً في السفينة، من شأنه أن يُغرق السفينة بمن فيها بسبب هذا الخرق الصغير.

وحين يسكت أفراد المجتمع عن إنكار تلك المنكرات، ولا

يحركون ساكنا حيالها، ولا يرون أنَّ لها أثراً سلبياً عليهم.. فإنَّ بوصلة المجتمع تتجه نحو الهبوط إلى القاع: «وإن تركوهم هلكوا وهلكوا جميعاً».

هناك أمور متعددة تضرُّ بالمجتمع، وتجعل منه مجتمعاً تافهاً وضيعاً.. لكنّه لا يوجد شيء أضرّ على المجتمع ومكوناته من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حين يترك المجتمعُ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فإن أخلاقه تتحلل، ودينه يضعف، ونوره يخفت، وحضارته تنهار، وأفراده يضيعون.. ويكون لقمة سائغة للاستعمار ووعاء مفتوحا للثقافات الوافدة وجسدا ضعيفا للمعتدين.

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه عن قرونٍ ممن كانوا قبلنا؛ أنه حين كان فيهم من ينهى الناس عمَّا كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فإنهم ينجون عند حلول غضب الله ونقمته على أممهم.. لكنَّهم قليلون.

وحين كانت هذه الأمم تسكت وتكتفي بأن تكون متفرجة لما يقع فيها من تلك الشرور والآثام، فإن غضب الله يمحقها.. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى

ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٦ – ١١٧].

لقد كان رسول الله ﷺ وهو يُؤسِّس لحضارة وبناء مجتمع؛ يؤكِّد على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الإطار، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم منصورون ومصيبون ومفتوحٌ عليكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولْيَنْهَ عن المنكر**»(١).

❊❊❊

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٩٦) حديث رقم (٤١٥٦) وصحح إسناده أحمد شاكر.

متى يعمُّ العقاب؟

عن جرير بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما مِن رجلٍ يكون في قومٍ يَعمَل فيهم بالمعاصي؛ يقدرون على أن يغيِّروا عليه، فلا يغيّروا؛ إلا أصابهم الله بعذابٍ من قبل أن يموتوا**»(١).

في حالٍ واحدة يمكننا أن ننتظر العقوبة العامة على المجتمع المسلم، ذلك حين يترك الطيبون – وهم الأكثر – الإنكار على العُصاة القليلين في المجتمع.

الطيبون.. الطيبون هم شرائح متنوعة..

منهم أهل القرآن الذين يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه..

ومنهم العلماء، حُفَّاظ الشريعة وحَمَلَة الوحي..

ومنهم أهل الفضل والإحسان، الذين ملؤوا البيوت المكلومة بخيراتهم، وأسعد الله بهم أُسَراً كانت في بؤسٍ وشقاء..

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢٢) كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي حديث (٤٣٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨١٩).

ومنهم العبَّاد الذين تعرفهم الهواجر بالصيام وتحن إلى قيامهم ظلمة الليل..

ومنهم المحافظون على فرائض الله، المنتهون عن محارمه..

ومنهم الذين كفوا أذاهم عن الناس..

ومنهم، ومنهم..

هؤلاء الطيبون.. هم بركة المجتمع ونوره وبهاؤه.

لكنهم حين يتخلَّون عن إنكار المنكر الذي وقع بين ظهرانيهم، ولا يكون لهم تأثير في التخفيف منه أو إزالته، فإنهم يستحقون أن تشملهم تلك العقوبة الإلهية التي تسبَّب في نزولها منكرٌ لم يغيروه!

لقد كان سكوتُهم عن الإنكار، وضعفُهم في التغيير، ذنباً يُتاب إلى الله منه. ذنباً يُعاقَب صاحبه.

إذا كانت المعصية جريمة في حق الله – عزَّ وجلَّ – فإن ترك الإنكار على مرتكبيها لا يقلُّ جُرماً عند الله. فما أهون ذلك عندنا وما أبشعه عند ربنا، جلَّ جلاله!!

قد يتعلَّل هذا أو ذاك من الطيبين بعللٍ منطقية؛ فيما يبدو للناظر، لكنها لا تُبرِّر للمجتمع أن يرسف تحت نير الخطايا.

إنه مجتمع لا يستحق التكريم من الله تعالى، ولا الثناء ولا الثواب، مهما حوى بين جنباته من العلماء والقراء والمحسنين والعُبّاد، لأنه مجتمع فاقد للغيرة، ملوَّث بالمعصية، غارقٌ في وحل الدنيا، لا يستطيع الفكاك من أَسْرها.

إنه مجتمع لم يفقه سرَّ الشريعة، ولم يدرك حقَّ الله تعالى كما ينبغي، فيجب أن يطاله التأديب.

قام أبو بكر ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥] إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عز وجل، أن يعمّهم بعقابه**»(١).

فهل ننتظر عقوبة من الله تأتي على صغيرنا وكبيرنا، وصالحنا وطالحنا، وطائعنا وعاصينا؟

❊❊❊

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢٢) كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث (٤٣٣٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨١٩).

بما كسبت أيدي الناس

الطواعينُ والأوجاعُ المستجدة في الناس والقحطُ والجدبُ والغلاءُ وظلمُ السلطان والاستعداءُ على الدولة الإسلامية من عدوها الأجنبي واختلافُ قيادات المسلمين فيما بينهم، وتناحرُهم واستعداؤُهم على بعضهم... كلُّ ذلك بلوى يجب على الناس دفعها، ورفعها لو وقعت.

ولكن كيف تُدفع وكيف تُرفع؟

كما أنَّ ظهورَ الفاحشة في الناس والغشَ في أمور البيع ومنعَ الزكاة وإخفارَ العهد ونبذَ كتاب الله تعالى وتركَ تحكيمه في شؤون الحياة المتنوعة الشخصية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية... كلُّ ذلك ذنوب وآثام يعاقب الله عليها في الدنيا ويحاسب عليها في الآخرة، ويجب على الناس مقاومتها وإزالتها.

ولكن كيف تقاوم وكيف تزال؟

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتُليتم**

بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يستعلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين، وشدّة المئونة، وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

إنها أمراض تفتك بجسد المجتمع.. ثم تجلب نقمة الله عليه.

ولا سبيل إلى إزالة هذه الأمراض ومقاومتها إلا بالاحتساب على أهلها والإنكار عليهم وتغيير هذه المنكرات أو على الأقل التخفيف منها.

ولا سبيل إلى دفع عقوبة الله العاجلة في الدنيا ورفعها إلا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤/ ٣٦٧) كتاب الفتن، باب العقوبات، حديث (٤٠١٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣١٦).

بالقضاء على مسبباتها التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث.

إن المجتمع الواعي يقوم بعقد الفعاليات والمناشط لتتبع منابع الفساد وتجفيفها مهما كلَّف الثمن والوقت والجهد، ليعيش أبناء هذا المجتمع في أمن وسلام ومحبة وتواد.. هذا الشيء الطبيعي الذي يمكن فعله، وإن نبينا ﷺ أخبرنا عن منابع الفساد وآثارها في هذا الحديث، فكما يجب على المجتمع إزالة تلك المنابع وطمسها فإن إعلان الحرب على ما أخبرنا به نبينا ﷺ من هذه الآثام والخطايا أشدّ وجوباً.. وهذا هو الاحتساب.

المحتسبون.. الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. هم الأداة الحقيقية لإصلاح معاش الناس ودنياهم، وإن الذين يحاربون الفاحشة في المجتمع ويحتسبون على أهل المال والأعمال، ويأمرون الناس بالوفاء بالعهد، وإيتاء الزكاة، ويحتسبون على الولاة والحكام بغرض تحكيم كتاب الله.. إنهم يقودون المجتمع إلى الأمن والسلام والمحبة والتواد، ويقودونه إلى الجنة.

وحين يترك الناس الإنكار على تلك الخطايا، ولا يأخذون

على أيدي مرتكبيها، ولا يأمرون بالمعروف، فإنهم يساهمون بشكل غير مباشر في وأد المجتمع وفساد حياته. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

يا معاشر الطيبين! صونوا مجتمعكم بالاحتساب..

❊❊❊

جريمة الصمت

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١١ - ١٤].

الذي عقر الناقة رجلٌ واحد، هو قدار بن سالف.

والذين تآمروا تسعة أشخاص، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٤٨ - ٥٢].

في سورة الشمس نسَب جريمةَ عقْرِ الناقة للقوم جميعاً، رغْم أن الذي باشر القتلَ رجلٌ واحد.

وفي سورة النمل جعل التدمير على القوم جميعاً رغم أنَّ المتآمرين تسعة.

فما هي جريمة القوم الذين عاقبهم الله بجريرة قدار بن سالف والرهط التسعة؟

كيف استحقت ثمود.. كل ثمود.. أن يرسل الله عليهم الصيحة من فوقهم، وأن يأمر الأرض أن ترتجف من تحتهم، حتى فاضت أرواحهم، وزهقت نفوسهم، وانخلعت قلوبهم؟

إنها جريمة الصمت!

جريمة السكوت عن الإنكار، والرضى بما يصنعه المفسدون في المجتمع، وعدم التصدي لهم ولإفسادهم، أوجبت عقوبة الله وسخطه عليهم، فحلَّ بالقوم جميعاً ما حلّ بقاتل الناقة والتسعة المفسدين.

إن القرآن والسنة يربِّياننا على التصدي للإفساد وعلى إنكار المنكرات، ويهدران قيمة الصمت حين يكون إسهاماً في نشر الفساد، ويجرّمان السكوت حين يكون دُلاً أو خوفاً من المفسدين، وحين يكون مُسهِّلا لأعمالهم القذرة.

مهما كان في المجتمع من عبّاد وزهّاد وعلماء وصالحين.. فإنه معرَّضٌ لغضب الله ومقته حين يسكت عن المنكرات، وحين

يكتفي بالتفرُّج على الفساد، وحين يكتفي بالحوقلة والحسبلة إذا مرَّ بالخطايا والآثام.

الشريعة تقرّر في عددٍ كثير من الآيات والأحاديث أن السكوت عن المنكرات والرضى بواقعها جريمة لا يغفرها الله في الدنيا، قال الله في حق قوم فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزُّخرُف:٥٤ - ٥٥]. لقد انتقم الله منهم جميعا، وأغرقهم عن بكرة أبيهم لأنهم رضوا بطاعة رجل واحد؛ هو فرعون، ولم يتصدوا لإفساده.

إنهم فراعينُ صغار..

إنهم هم من صنع فرعون الأكبر، فاستحقوا جميعاً العقوبة.

قال ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده**»(١).

***

(١) سبق تخريجه ص٣١.

ربّكم يغار!

بعد نزول الآيات في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤] قال سعد بن عبادة ﷺ: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «فلما حلف سعد ﷺ أنه يقتله ولا ينتظر به الشهود، عجب النبي ﷺ من غيرته، وأخبر أنه غيور، وأنه ﷺ أغير منه، والله أشد غيرة، وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: إقراره وسكوته على ما حلف عليه سعد أنه جائز له فيما بينه وبين الله، ونهيه عن قتله في ظاهر الشرع، ولا يناقض أول الحديث آخره.

والثاني: أن رسول الله ﷺ قال ذلك كالمُنكِر على سعد،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٦٢) كتاب الحدود باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، حديث (٦٨٤٦).

فقال: «**ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم**»؟! يعني: أنا أنهاه عن قتله وهو يقول بلى، والذي أكرمك بالحق. ثم أخبر عن الحامل له على هذه المخالفة بأنّها شدة غيرته، ثم قال: «**أنا أغير منه، والله أغير مني**» وقد شرع إقامة الشهود الأربعة مع شدة غيرته سبحانه فهي مقرونة بحكمة ومصلحة ورحمة وإحسان فالله سبحانه مع شدة غيرته أعلم بمصالح عباده، وما شرعه لهم من إقامة الشهود الأربعة دون المبادرة إلى القتل، وأنا أغير من سعد، وقد نهيته عن قتله، وقد يريد رسول الله ﷺ كلا الأمرين وهو الأليق بكلامه وسياق القصة»[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تعالى يغار، وغَيرة الله أنْ يأتيَ المؤمن ما حرّم الله عليه**»[(٢)]. وأصل الغيرة: الأنفة..

هذان الحديثان يدلان على صفة حقيقية من صفات الله تعالى.. الغيرة، وأن الله لا يرضى أن ينتهك المؤمن حرمة الله، وأنه يغضب ويعاقب على ذلك سبحانه.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣٩٣) باب الغيرة حديث رقم (٥٢٢٣) ومسلم (٤/ ٢١١٤) كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش حديث (٢٧٦١).

فكيف بغيرته وغضبه إذا انتهكت المحارم بشكل علني!

أم كيف ستكون غيرته إذا أقرَّ الناسُ انتهاك المحارم ورضوا بذلك!

أم كيف ستكون غيرته إذا قَنَّنَ الناس انتهاك تلك المحارم! وجعلوا لها لوائح وتشريعات!

يا لله!! لم ينكر رسول الله ﷺ غيرة سعد بن عبادة رضي الله عنه، وإنما أراد ضبط الحدود، وإشارة الحديث واضحة في جواز القتل في تلك الحالة عند الله مع عدم إعفائه من القود عند الناس.

وهكذا يجب على أفراد المجتمع: أن يغاروا على حرمات الله، وأن يتلمسوا عفو الله ورضاه في غيرتهم على حرماته.

الغضب لله والغيرة على دين الله من مقامات العبودية لله، ولا يصلح لقلب المؤمن أن تمر عليه المنكرات دون أن ينتفض غيرة لله تعالى.. إن ربكم يغار.. فهل تغارون؟

❊❊❊

أعظم الجهاد

جهاد عظيم، لكنه بغير سلاح!

عن أبي أمامة ﷺ قال: عرض لرسول الله ﷺ رَجُلٌ عند الجمرة الأولى، فقال: يارسول الله! أيّ الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رمى الجمرة الثانية سأله، فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة، وضع رجله في الغرز ليركب..

قال: «**أين السائل**»؟

قال: أنا يارسول الله.

قال: «**كلمة حق عند ذي سلطان جائر**»[١].

قال في تحفة الأحوذي: والمراد بالكلمة ما أفاد أَمْراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، من لفظ أو ما في معناه ككتابة ونحوها[٢].

إذا كان السكوت عن المنكرات جريمة يمقتها الله، ويوجب

---

(١) أخرجه الترمذي ( ) أبواب الفتن، باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، حديث (٢٢٦٥) وأخرجه ابن ماجه (٤/ ٣٦٣) كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث (٤٠١٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣/ ٣١٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٣٠).

عليها العقوبة في الدنيا، فإنَّ كلمة الإنكار فضيلة عظيمة يرفع الله قدر قائلها إلى أن يكون من أفضل المجاهدين.

المجاهدون.. أولئك الذي حملوا أرواحهم على أكفهم، يطلبون الموت من مظانِّه، ويتلقون الرصاص بصدورهم.. كم أسقطوا من عدو كافر، وكم من دماء أهراقوها في سبيل الله..

المجاهدون.. حياتهم في الثغر، لا رفاهية ولا أولاد، إنما مجالسة السلاح ومواجهة الأعداء.

قد أفاض الله على المجاهدين في سبيله بكرامات الدنيا والآخرة، جزاء ما بذلوه.

لكنَّ ذلك الرجل الفرد، الذي غار على محارم الله، ورأى موقفاً لله عليه مقالٌ فيه، وانتفض قلبه وفِكره خشية الله.. ثم توجّه نحو السلطان، بنفسه أو بقلمه، وقد علِم ما يمكن أن يؤول إليه صنيعه، لكنه احتسب أجره على الله، وفوّض أمره إلى الله، وصدَق مع الله، فقال كلمة الحق.. تلك الكلمة التي ينكر فيها منكَراً رعاه السلطان، أو أيَّده أو أقرَّه أو رضي به أو سكت عنه.. ذلك الرجل عمل عملاً هو عند الله أفضل من رباط

أولئك المجاهدين بمواجهة العدو، مع أنه لم يحمل سلاحاً ولم يدعُ إليه. بل إنه أفضل الجهاد.

قال الخطابي: وإنما صار ذلك أفضل الجهاد؛ لأن من جاهد العدو كان متردداً بين الرجاء والخوف لا يدري هل يَغلب أو يُغلب، وصاحب السلطان مقهورٌ في يده، فهو إذا قال الحق وأمَره بالمعروف فقد تعرض للتلف، وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف[1].

إن المنكَر الذي يكون على السلطان تسهيلٌ له بفعله أو إقراره أو تقنينه أو رضاه أو تأييده، ليس كأفراد المنكرات التي يرتكبها شخص ما، في زاوية ما، لأن ذلك المنكر من شأنه أن يتفشى في المجتمع في وقت سريع وبدون مقاومة تُذكر، وكما قيل في المثل السائر بين الناس: الناس على دين ملوكهم.

❊❊❊

(١) معالم السنن للخطابي (٤/ ٣٢٤).

مجتمعٌ ملعون

بنو إسرائيل.. الذين أنزل الله عليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل وكثر فيهم الأنبياء وأغدق الله تعالى عليهم النعم الكثيرة.

غضب داود عليه السلام على الذين كفروا منهم فلعنهم كما في الأسفار، وتكرَّر لعْنُ عيسى، عليه السلام، لهم كما في الأناجيل، حيث كانت مقاومة الفساد مؤقتة، والنهي عن الخبائث قليلاً، حتى تفشت المنكرات في تلك الأمة، فاستحقت لعنة الله عليها، على سكوتها ورضاها بالمنكرات.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [المائدة:٧٨ - ٧٩].

لقد كانت معصيتهم واعتداؤهم اللذان استحقوا عليهما لعنة الله: أنهم لا يتناهون عن منكر.. لا ينهى بعضهم بعضاً.. لا ينهى الفاضلُ مرتكبَ الخطيئة، فأصبحوا شركاء في هذه الخطيئة مرتكبين لهذا المنكر.

قال ابن عاشور رحمه الله:

وجملة: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤالٍ ينشأ عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ وهو أن يقال: كيف تكون أمة كلها متمالئة على العصيان والاعتداء، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾. وذلك أنَّ شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أو النفر القليل، فإذا لم يجدوا من يغيِّر عليهم تزايدوا فيها، ففشتْ، واتبع الدهماء بعضهم بعضاً حتى تعمَّ ويُنسى كونها مناكر، فلا يهتدي الناسُ إلى الإقلاع عنها والتوبة منها، فتصيبهم لعنة الله. وقد روى الترمذي، وأبو داود، من طرق عن عبد الله بن مسعود ﷺ بألفاظ متقاربة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان الرجل من بني إسرائيل يلقى الرجل إذا رآه على الذنب فيقول: يا هذا اتق الله! ودع ما تصنع. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وخليطه وشريكه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم. ثم قرأ**: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾) ثم قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد الظالم، ولتأطرنه**

على الحقّ أطراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، أو ليلعنكم كما لعنهم»[١][٢].

وقال الشوكاني رحمه الله: وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر، لأنّ من أخلَّ بواجب النهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدى حدوده. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجَلَّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبت، فإنَّ الله مسخَ من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترَك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعاً قردة وخنازير[٣] .. نسأل الله العفو والعافية.

❊❊❊

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢١) كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي حديث (٤٣٣٦) والترمذي (٥/ ٢٥٢) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ومن سورة المائدة﴾ حديث (٣٠٤٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٦/ ٢٩٢).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٨٢).

ليسوا سواء

في حقيقة الأمر.. لم يكن أهل الكتاب كلهم على درجة واحدة من المقت عند الله..

لم يكونوا جميعاً يكفرون بالله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ولم يكونوا جميعاً عصاة ومعتدين.. ففيهم طائفة نجت من ذلك المقت.

فمن هي هذه الطائفة؟ ما هي سماتها؟ وكيف فازت عند الله؟

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٣ - ١١٥].

هذه الطائفة وصفها الله، عزَّ وجلَّ، بأنها قائمة بدين الله في نفسها ومع مجتمعها، تقرأ ما أنزل الله وتعمل به، وتقيم

الصلاة.. هي طائفة تؤمن بالله العظيم، وتؤمن بما جاءت به الرسل من الإيمان باليوم الآخر..

لكن الذي يميِّز هذه الطائفة أنها لا تتصور نفسها مؤمنة حق الإيمان دون أن تقوم بدين الله في الناس وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر..

إيمانها بالله واليوم الآخر يملي عليها ألا تسكت عن باطل تراه أو منكر تسمعه..

إيمانها بالله واليوم الآخر يوقد في قلبها نار الغيرة على محارم الله..

إيمانها بالله واليوم الآخر يوقظ في وجدانها مشاعر الرحمة بالخلق فتأمرهم وتنهاهم..

إنها طائفة، بل «أمّة» تقود الناس إلى الخير في الدنيا والجنة في الآخرة. لذلك.. نجت من مقت الله وعذابه، ونجت من لعنته حين ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾.

حين يفسد المجتمع، ويرضى بالمنكرات ويوشك الله أن يعمّه بالعقاب، فإن فئة من هذا المجتمع ستنجو من هذا العقاب والمقت..

إنها تلك الجماعة التي نذرت نفسها لله، تقوم بأمره بين الناس، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، لا تخاف في ذات الله لومة لائم، ولا تهديد سلطان، ولا هجر قريب، ولا تخضع لإملاء شهواتها في المال والجاه والمنصب والوظيفة.. وكما وصفهم الله في أواخر سورة آل عمران: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

لا شيء يثنيهم عن قولة الحق مهما كانت مرارتها، ومهما كان ثمن السكوت عنها.

هذه الجماعة وإن كانت مغمورة بين الناس، غير معتبرة عندهم، منبوذة عند كثير من أهل الجاه والمال والسلطان.. وإن كانت كذلك فإنها في ميزان الله العدل ذات قيمة، وليست برخيصة..

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

❊❊❊

طائفة ناجية

في أعلى خليج العقبة على شاطئ البحر الأحمر مدينة إسلامية احتلها الكيان الصهيوني، تسمى (إيلات) وهي نفسها المدينة التاريخية المعروفة بـ(أيلة).

وكان يقطنها اليهود من بني إسرائيل، ولهم فيها قصة خلّدها القرآن الكريم.

فقد حرّم الله عليهم الصيد يوم السبت، فاحتال بعض القوم على هذا النهي من الله تعالى، وسبب ذلك أن الحيتان والأسماك كانت تغيب طيلة أيام الأسبوع، فإذا جاء يوم السبت ظهرت واقتربت وأغرت الناس بشكلها وحجمها، فعمد البعض على نصب الشباك لها قبل يوم السبت فتقع فيها يوم السبت، حتى إذا جاء الليل (ليلة الأحد) اشتوى أولئك صيدهم وأكلهم، وعمد البعض على حفر قنوات إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتحوا القناة، وساقت الأمواجُ والمياهُ تلك الحيتان والأسماك إلى قنواتهم، ثم أغلقوا عليها، واشتووها وأكلوها..

فعلمت طائفة من هذه المدينة عن ذلك فأنكروا عليهم فِعْلهم وشنّعوا صنيعهم وخوفوهم بالله وعقابه، فلمْ يُجدِ ذلك شيئاً، وتكرّر من المعتدين يوم السبت صنيعهم، فكرّرت تلك الطائفة زجرهم والإنكار عليهم، ولكن دون جدوى!

وكان في تلك المدينة طائفةٌ ثالثة لم يعتدوا يوم السبت؛ ولكنهم – أيضا – لم ينكروا هذا المنكر.. أشاروا على الناهين عن المنكر بأن نهيهم عن المنكر لا ينفع حيث تكرر دون فائدة ودون أن يرتدع المعتدون في السبت.

لم يستجب أولئك الناهون إلى هذا التثبيط معللين استمرارهم في النهي عن المنكر بأمرين:

الأول: الإعذار إلى الله بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فرضه الله على الناس.

الثاني: لعلّ الاستمرار على إنكار فعل الذين اعتدوا في السبت ينفعهم فيتعظوا بالنصيحة ويتركوا ما أقاموا عليه طيلة الأوقات الماضية من الاعتداء في السبت، ويتوبوا إلى الله.

وبعد الاستمرار في نصح العُصاة ورفض أؤلئك العصاة للنصيحة نزل عذاب الله، حيث مسخ اللهُ تعالى العصاة قرَدَةً

جزاء رفضهم للنصيحة، ولم ينجُ من عذاب الله هذا إلا الناصحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٣ - ١٦٦].

أمّا المثبطون الساكتون فاختلف الأئمةُ فيهم: هل كانوا من الهالكين أم كانوا من الناجين. قال الشوكاني رحمه الله محققاً لهذا الخلاف:

واعلم أنّ ظاهر النظْم القرآني هو أنّه لم ينجُ من العذاب إلا الفرقة الناهية التي لم تعصِ لقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وأنّه لم يعذِب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ . فإن كانت

الطوائف منهم ثلاثاً.. فالطائفة التي لم تنْهَ ولم تعصِ يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية، لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر، ويحتمل أنها لم تُمسخْ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة؛ وهي صيد الحوت يوم السبت، ولا عتت عن نهييه لها عن الصيد، وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية، وإنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين، فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ[1]. فالنجاء النجاء!

❊❊❊

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٢٨).

احتسابٌ في البيت

عَقِبَ ذِكْره لعدد من الأنبياء في سورة الأنعام، أشار القرآن الكريم إلى الاقتداء بهم، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

فأوجب الله تعالى على نبيه ﷺ، وأمته من بعده، أن ينهجوا نهج الأنبياء.. قال القرطبي رحمه الله: وقد احتجَّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتِّباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص[1]. وهو معنى قول الأصوليين: شرعُ من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يخالفه نصٌّ أو ينسخه.

وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥] .. كان إسماعيل عليه السلام يحتسب على أهله في أمرهم بالمعروف: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ولأهمية القيام بواجب الاحتساب في البيت ومع الأهل، لم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٢٥).

يكتفِ القرآن بعرض نموذج إسماعيل عليه السلام، بل جاء الأمر الصريح لنبينا محمد ﷺ بذلك .. قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]. أمرٌ من الله تعالى بأن يأمر النبيُّ القدوة ﷺ أهلَه بالصلاة، ويصبر على فعلها، ولا ينشغل عن إقامتها برزق أو غيره. وامتثل نبينا ﷺ هذا الأمر فكان يمرُّ كل صباح على فاطمة وعليٍّ – رضي الله عنهما – كما ذكر القرطبي، فيقول: الصلاة! وحين احتضر ﷺ قال: «**الصلاة الصلاة**» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استيقظ من الليل أقام أهله وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1].

لم يكن الاحتساب في بيته ﷺ مقصوراً على الأمر بالصلاة، بل شمل كل مناحي الحياة، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: وعد جبريلُ النبي ﷺ في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، حتى اشتدَّ على النبي ﷺ وفي يده عصا فألقاها من يده، وقال: «**ما يخلف الله وعده ولا رسله**» ثم التفت فإذا

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٤).

جرو كلب تحت سريره، فقال: «**يا عائشة! متى دخل هذا الكلب**»؟ فقالت: وأيم الله ما دريت. ثم أمر به فأخرج، فجاء جبريل، فقال: «**واعدتني فجلست لك فلمْ تأتِ**»! فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك[١].

وتحدثنا عائشة عن جانب آخر من احتسابه ﷺ في بيته، تقول: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. فقال ﷺ: «**لقد قلتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته**» قالت: وحكيت له إنساناً فقال: «**ما أحب أني حكيت إنساناً وأنّ لي كذا وكذا**»[٢].

إنها سِمَةُ الوليّ المؤمن، الذي يمتثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]،

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٦٤) كتاب اللباس والزينة، باب تحريم صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة ... حديث (٢١٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٩) كتاب الأدب، باب في الغيبة حديث (٤٨٧٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٣٢٩).

فيخاف على أهله عقوبة الله في الدنيا والآخرة، خوفاً يبعثه على الاحتساب عليهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدافع الحب والشفقة لا الانتقام، وبدافع الامتثال لأمر الله، لا بدافع الهوى والنظرة الاجتماعية.

***

وفي السوقِ احتسابٌ

في جولة له ﷺ في سوق المدينة.. لفت انتباهه كومة مجموعة من الحنطة جميلة المنظر، تُعجِب من يراها، وتغريه بشرائها، فأراد النبي ﷺ أن يتبين جودتها في جميع هذه الكومة أسفلها وأعلاها، حيث يعمد بعض التجار إلى إخفاء عيوب السلعة وإبراز أجودها ليشتريها الناس، ولا عليه ماذا يحصل لهم بعد أن قبض الثمن.

فأدخل يده ﷺ في الكومة حتى غاص بها إلى أسفلها، فوجد بللاً! والبلل يؤثر على جودة الحنطة.. فسأل النبي ﷺ البائع: «**ماهذا يا صاحب الطعام**»؟

سؤال تدلُّ نبرته على الاستنكار: أن يخلط الرطب باليابس، وكان الأولى أن يفصل بينهما ويظهرهما للناس.

قال البائع: أصابته السماء يا رسول الله.

فقال ﷺ: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس. من غشّ فليس منّي**»[(١)].

ولقد تكرَّر منه ﷺ الإنكار على ما يمكن تسميته بـ(المخالَفات التجارية) والتي تكون في السوق، مشرِّعاً بذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المتاجر والأسواق.. سواء وُجِد المنكر في البضائع والسلع أم في الباعة والتجار أم في المشترين والمتسوقين والمرافقين لهم أم في المتجوّلين والمارين.

إن الأسواق والمتاجر تمثل جزءاً حيوياً في المجتمعات.. يجب تطهيرها وتنقيتها مما يخالف أمر الله ويوجب عقابه، حيث تسهل فيها المعصية وتجد الخطيئة فيها موطناً، وكما قال النبي ﷺ في وصفها: «**فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته**»[(٢)] [(٣)] ففيها يكثر الغش والخداع، وأكل أموال الناس بالباطل، وتروَّج البضائع الفاسدة، والسلع التي تغضب الله تعالى، وتدعو إلى

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٩٩) كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ ﴿من غشنا فليس منا﴾ حديث (١٠٢).

(٢) أي هي (الأسواق) ميدان معركة الشيطان مع الإنسان، وفيها ينصب رايته فلا يتزحزح عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٠٦) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها حديث (٢٤٥١).

البعد عنه سبحانه، ويختلط الرجال بالنساء، ويزدحمون، مما يسهل طريق الفتنة وترويج الفاحشة والخبائث.

كتبٌ تدعو إلى الإلحاد أو الانحراف وتثير الشهوات.. ألعابٌ تعلّم الطفل ما يجعله يتخلى عن هويته الإسلامية.. وسائطُ مسموعة أو مرئية: محرمة.. ملابسُ كاسية عارية، غير محتشمة.. صنائعُ نهت عنها الشريعة.. كل ذلك يستدعي من العبد المؤمن أن يحتسب على كافة المنكرات الموجودة في أسواقنا ومتاجرنا، ليسلم المجتمع من تبعتها الثقافية السلبية، والتي غالباً لا يلقي التجار لها بالاً إلا من رحم الله، وقليل ما هم.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «من تيقَّن أنَّ في السوق منكراً يجري على الدوام، أو في وقتٍ معيّن، وهو قادرٌ على تغييره، لم يَجُزْ له أن يسقِطَ ذلك عنه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه»[1].

وفي وقتنا هذا تنتشر المُجمَّعات الكبرى (المولات) والمعارض التجارية، ولا يسع المؤمن إلا أن يكون فيها حارساً للشريعة حامياً للفضيلة.

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٠٩).

ولا يسوغ بحال من الأحوال أن يذهب أحدنا إلى السوق ليشتري سلعة فيجد أمام عينيه منكراً فلا يتحرك لسانه بالإنكار والتذكير.. إنه تخاذل وتفريط ومعاونة على الإثم، لأن إنكار المنكر باللسان أمرٌ مقدورٌ عليه، وفي متناول الجميع. يا مؤمن! لا تكن شريكاً للشيطان!

❊❊❊

وفي المسجدِ احتسابٌ

لبيوت الله، عزَّ وجلَّ، هيبة وعظمة في القلوب.. إنها مواطن الرحمة ومشافي الروح، لما يُتلى فيها من كلام الله، ولما تُعفَّر فيها من جباه، ولما تنتصب الأقدام فيها لله تبارك وتعالى..

المساجد.. هي للصلاة ومناجاة الله ودعائه. هي لقراءة القرآن العظيم وذكر الله سبحانه. هي لتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومع ذلك، لم يكن النبي ﷺ ليرى ما يكرهه الله تعالى وملائكته في المسجد، ثم لا ينبس ببنت شفة، ولا يكون له موقف أو كلمة في ذلك.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الوظائف التي تقام في بيوت الله..

خطب عمر رضي الله عنه يوم الجمعة فقال في خطبته: «ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين: البصل والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد

أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا»[(١)]. قال النووي: «هذا فيه إخراج من وُجد منه ريح الثوم والبصل ونحوهما من المسجد، وإزالة المنكر باليد لمن أمكنه»[(٢)].

وعن السائب بن يزيد - رحمه الله - قال: بينما أنا مضطجعٌ في المسجد إذا رجل يحصبني [يرميني بالحصباء]، فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب ﷺ، قال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما - أشار إلى رجلين يتحدثان - فقال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ [(٣)].

وعن رفاعة بن رافع ﷺ أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد يوماً، قال رفاعة: ونحن معه، إذ جاءه رجل كالبدوي فصلى، فأخف صلاته، ثم انصرف فسلم على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**وعليك، فارجع فصلّ فإنك لم تصلّ**» فرجع فصلى، ثم جاء فسلم عليه، فقال: «**وعليك، فارجع فصل فإنك لم**

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٩٦) كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها حديث (٥٦٧).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٥/ ٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٦٨) كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد حديث (٤٧٠).

تصل» ففعل ذلك مرتين أو ثلاثا كل ذلك يأتي النبي ﷺ فيسلم على النبي ﷺ فيقول النبي ﷺ: «**وعليك، فارجع فصل فإنك لم تصل**» فخاف الناس وكبر عليهم أن يكون من أخف صلاته لم يصل فقال الرجل في آخر ذلك فأرني وعلمني فإنما أنا بشر أصيب وأخطئ. فقال: «**أجل إذا قمت إلى الصلاة فتوضأ كما أمرك الله، ثم تشهد وأقم، فإن كان معك قرآن فاقرأ، وإلا فاحمد الله وكبره وهلله، ثم اركع فاطمئن راكعا، ثم اعتدل قائما، ثم اسجد فاعتدل ساجدا، ثم اجلس فاطمئن جالساً، ثم قم، فإذا فعلت ذلك فقد تمت صلاتك وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك**»[(١)].

آثار وأحاديث عديدة تجعل من المسجد موطناً من مواطن الاحتساب، تحث المؤمن القائم بدين الله أن يقوّم أي اعوجاج يحصل في بيوت الله.

❊❊❊

(١) أخرجه الترمذي (٢/ ١٠٠) أبواب الصلاة، باب ما جاء في وصف الصلاة حديث (٣٠٢)، وقال: حديث حسن.

وفي الطريقِ احتسابٌ

الاهتمام بطُرُق المسلمين من الواجبات المهمة على ولاة الأمر وكذلك هو واجبٌ على عموم المجتمع. حين بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أبا موسى الأشعري ﷺ والياً على البصرة، قام أبو موسى خطيباً في الناس هناك وقال: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم أعلِّمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ وأنظف لكم طرقكم»[1].

الطرقات.. شأنها شأن المرافق العامة في الكيان المسلم يحث ديننا على الاهتمام بها وإصلاحها.

وطرقات المسلمين لها هويَّة، تختلف عن طرقات غيرهم. ولذا جاءت العديد من الأحاديث والآثار في شريعتنا البيضاء بآداب الطريق وواجباته.

وإن من أهمِّ الآداب الواجبة في الطريق أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٥٧).

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس بالطرقات**» فقالوا: يا رسول الله! ما لنا من مجالسنا بدٌّ نتحدث فيها، فقال ﷺ: «**إذ أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[1].

الطريق.. مظنة لوقوع المنكرات، من سماع للأغاني والمعازف، أو اختلاط بين الرجال والنساء، أو تبرج وسفور، أو وقوع ظلم وبغي بغير حق، أو كلمات لا ترضي الله، أو ترك للصلوات إذ يحين وقتها، أو غير ذلك مما يمكن وقوعه في طرقات المسلمين. لهذا يجب على المؤمن أن يصلح الطريق!

لكنّ إصلاح الطريق هنا ليس حسياً، بل معنوي.. إنه إصلاح قِيَم الطريق.

ولو تركنا كل منكر اعترَضنا في الطريق لخرب الطريق وفقد

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٦) كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا...)** حديث (٦٢٢٩). وأخرجه مسلم (٤/ ١٧٠٤) كتاب السلام، باب من حق الجلوس على الطريق رد السلام حديث (٢١٢١).

هويته الإسلامية، وأصبح موطناً يأنف من المرور عليه الطيبون والأخيار، ولأصبح موئلاً للفساق وأهل اللهو، وبؤرة تنطلق منها الخلاعة والخطيئة.. ويصبح المجتمع المسلم النظيف حينها مهدداً بالاتساخ والتلوث، وتميل صورته الحسنة، وتتصدع هويته السامقة.

إصلاح الطريق جزء من إصلاح المجتمع. والاحتساب في الطريق من أهم أدوات هذا الإصلاح.

عن أبي أسيد مالك بن ربيعة عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ للنساء: «**استأخرن. فإنه ليس لكُنّ أن تحققْنَ الطريق. عليكُنَّ بحافات الطريق**»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به[1].

❊❊❊

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٦٩) كتال الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق حديث (٥٢٧٢) وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٨٩).

وفي الجهادِ احتسابٌ

سبحان الله!!

وهل يُحتسَبُ على المجاهدِ في سبيل الله؟ المجاهد الذي قدّم أكبر دليل على عبوديته لله فضحَّى بروحه وأُهريق دمُه ليرضى الله.

وهل في ساحات الجهادِ احتساب؟ تلك الساحات التي تعجّ بالأصفياء من عباد الله والذين يتّخذ الله تعالى منهم الشهداء.

نعم.. المؤمن يؤمَر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، ولو كان مجاهداً في سبيل الله.

نعم.. كلُّ مكان هو محلٌ للاحتساب، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان ميدان المعركة التي يقاتل فيها أولياءُ الله تعالى أولياءَ الشيطان.

بعد صلح الحديبية الذي عقده نبينا ﷺ مع قريش، فأمَّنها وأمَّن حلفاءها تفرّغ ﷺ لتأديب اليهود وجهادهم، فتوجّه إلى خيبر معقل اليهود، ففرض الحصار عليها، وبقي مدّة، فنقصت مؤونة جيش الصحابة الأبرار، يقول الصحابي الجليل عبد الله

بن أبي أوفى ﷺ: أصابتنا مجاعة يوم خيبر، ونحن مع رسول الله ﷺ، وقد أصبنا للقوم حُمُراً خارجة من المدينة، فنحرناها، فإن قدورنا لتغلي.. إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: «**أن أكفئوا القدور، ولا تطعموا من لحوم الحمر شيئًا**»(١).

وعن أسامة بن زيد ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة، قال: فصبَّحنا القوم فهزمناهم. قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلَغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: «**يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله**»؟ قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً. قال ﷺ: «**قتلته بعدما قال لا إله إلا الله**»؟ فما زال يكررها عليَّ حتى تمنَّيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم(٢).

المجاهدون بشر مهما علا شأنهم ونما فضلهم، ولا بدّ للبشر

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٣٨) كتاب الصيد والذبائح، باب تحريم أكل لحوم الحمر الأنسية حديث رقم (١٩٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٢٦٦) كتاب الديات، باب قول الله تعالى «**ومن أحياها**... » حديث (٦٨٧٢) ومسلم بنحوه (١/ ٩٦) كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله حديث (١٥٣).

من اجتهادات قد تخطئ أحيانا، ولو تُركت هذه الأخطاء لأحدث ذلك التركُ مفسدة عظيمة، كإزهاق الأنفس المعصومة، وإتلاف الأموال التي اغتنمت.. وهنا يجب إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا المقام ليبقى الجهاد نقيا صافيا طاهرا مما قد يشوبه أو يغيّر مساره أو يحرفه عن مقصوده وأهدافه.

حتى القرآن الكريم.. مارس التوجيه في الغزوات، أمراً ونهياً وعتاباً، تأمل قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا

يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران:١٥٢ – ١٥٥].

إنّ الاحتساب في ساحات الوغى، وعند ضرب الرقاب منهجٌ قرآني، وهدي نبوي.

❊❊❊

وفي المجالسِ احتسابٌ

الأصل في كل حياة الناس أن تكون على هُدى من الله، وأن تسير وفق ما يرضي الله. ومن ذلك مجالس الناس، فالناس يجتمعون ويجلسون إلى بعضهم، ولا بدّ، فيتبادلون الأحاديث والأخبار والمشورة والفكاهة.

وقد يحصل أنْ يصدر من هاتيك المجالس هنّات وزلاّت، فاحتاجت إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتصحيح الخطأ وتقويم الاعوجاج وتلافي الزلل.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب. فقال: «**بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض . بهذا هلكت الأمم قبلكم**». قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس

تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه[١].

وجاءه رجلٌ فقال: ما شاء الله وشئت، فقال ﷺ: «**جعلتَ لله نداً؟ ما شاء الله وحده**»[٢].

إن مجالس الناس، كسائر شؤون حياتهم.. بحاجة إلى توجيه وإرشاد، فكم يقع فيها من أخطاء وخطيئات: غيبة ونميمة. كذب وبهتان. ترويج للشائعات. رجم بالغيب. شماتة وسخرية. قول على الله بغير علم. وقيعة في الفضلاء والعلماء. والكثير من الآفات التي ابتليت بها مجالس فئام من الناس.

هذه الآفات.. إن لم يقم المخلصون في المجتمع بالتصدي لها ونفيها عن مجالس الناس، وإلا فستكون تلك المجالس من نصيب الأعمال السيئة التي تكتب في ميزان العبد.. وإلا فستكون تلك المجالس مصدراً للأكاذيب ونقل الشائعات وتزييف الحقائق..

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٥) المقدمة، باب في القدر حديث (٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب قول الرجل: ما شاء الله وشئت حديث (٧٨٣) وصححه الألباني في صحيح الأدب ص(٢٩٢).

وإلا فستكون منبعاً للأحقاد والتباغض بين المسلمين والتآمر على بعضهم البعض.. وإلا فستكون حرباً على العلم الشرعي المؤصل وأهله القائمين به.. إن المجالس إذا خلت من أمْرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر فستكون كارثة أخلاقية تطال أطراف المجتمع وقلبه.

***

وفي العزاء احتساب

بعد أن تفارق الروحُ جسدَه، وتطيرُ بها الملائكة في الحياة الأخرى يذهلُ محبوه ويبكي بنوه.. ويسوَدُّ البيت بكل تفاصيله .. إنها مصيبة الموت!

فيها تحدث الفوضى: فوضى في الحركة، وفوضى في الكلام، وفوضى في المعاش.

وفيها يجد الشيطان باباً لإقحام أهل الميت ومحبيه في التعدي على مقام العبودية، وفرصة لإسقاطهم في الإثم.

والعزاء سنّة وعُرْف.. لكنه يجب أن تنضبط فوضاه، ويجب تغيير المنكر الذي يكون فيه.

لما مات الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ﷺ في السنة الثالثة من الهجرة، وهو من السابقين إلى الإسلام، وممن زهد في ثرائه وغناه؛ أسِفت عليه امرأته الصالحة الصابرة، لكنَّ مشاعرها تجاه زوجها فاضت، وهي التي عرفته وسبرته فوجدته الرجل الصالح الذي يُؤْثِر الآخرة على الدنيا، فقالت: رحمة الله عليكَ أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله.

هكذا الظنُّ بالله وهو أرحم الراحمين، أن يكرم عبده المؤمن المهاجر الذي زهد في أمواله الطائلة واختار ما عند الله.

لكنَّ هذه الكلمة «فشهادتي عليك لقد أكرمك الله» فيها تجاوزٌ لمقام العبودية لله والتسليم له، وفيها تعدٍّ على علم الله تعالى.

هذه الكلمة لفتت انتباه النبي المحتسب ﷺ، فكرهها، ولم يرض بسماعها، فقال مستنكراً: «**وما يدريك**»؟ أي كيف علمتي هذا الأمر الغيبـي الذي لا يعلمه إلا الله! فعرفت الحق، وعلمت أنها أخطأت، فقالت مستدركة لهذا الخطأ: لا أدري والله.

فقال النبي ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين. إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم**»[1].

فأعلنت توبتها من مثل هذا القول، وقالت: والله لا أزكي أحدا بعده.

وفي موقف آخر.. لم يسعْه ﷺ السكوت عن منكرٍ يراه إثر مصيبة الموت.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٣) كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام حديث (٧٠١٨).

ها هو ﷺ يأتي على امرأة من المسلمات تبكي على ولدها الذي وافته المنيّة.. تبكي على فلذة كبدها.. ليس في مجرد البكاء حرج، إنما ما يرافقه من جزع وتَسخُّط على قدر الله. فقال لها ﷺ ناصحا: «**اتقِ الله واصبري**». فردَّت عليه معترضة: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي.. ولم تعرفه.

بمعنى أنك لم تصب بمثل هذه المصيبة، فلو أصابك مثلها لفعلت مثلي ولعذرتني.

انصرف النبي ﷺ إلى بيته. فأخبرها الناس أنه نبي الله ﷺ.. انخلع قلبها! وحدثت نفسها: كيف أردُّ على رسول الله ﷺ بذلك الردّ الذي لا يليق بمقامه! وكيف أمتنع عن نصيحة يوجهها إليّ نبي الله ﷺ ! انطلقت مسرعة إلى بيته، فقالت له: يا رسول الله! لم أعرفك.

فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[1].

إن مجالس العزاء ينتابها في كثير من الأحيان أخطاء ومنكرات

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٩٥) كتاب الجنائز، باب زيارة القبور حديث (١٢٨٣) ومسلم (٢/ ٦٣٧) كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى حديث (٩٢٦).

ومبتدعات، ولا يجوز السكوت عليها جبراً لخاطر أهل المصيبة، بل الواجب الإنكار والتغيير اقتداء بنينا محمد ﷺ بأسلوب حسن وطريقة حكيمة.

***

احتساب على وليِّ الأمر

لقد كان النبي ﷺ يعلِّم الصحابة فقه التعامل مع السلطان في أحاديث عديدة، كما كان يعلمهم ما للسلطان وما عليه، وحين مات النبي ﷺ وتمت البيعة للخليفة الصديق أبي بكر ﷺ قال: «أيُّها الناس فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإِنْ أحسنت فأعينُونِي، وإِنْ أَسأتُ فَقَوِّمُونِي»(١).

يأمرهم، ولم يكونوا بحاجة إلى أمر، بأن يراقبوا عمله؛ ليصحِّحوا أيَّ انحراف بشري يمكن أن يقع، سواء كان هذا الانحراف يتعلَّق بذات السلطان أو بعمله، لأن انحراف ولي الأمر سينعكس تأثيره على المجتمع مرتين.. مرَّة كونه أحد أفراد المجتمع، وكلُّ فرد له تأثيره على المجتمع كما في حديث السفينة السابق. ومرَّة أخرى لأنه رمزٌ في المجتمع يُنظر إليه ويُقتدى به ويُهاب، وكما قيل: الناس على دين ملوكهم. قال الحافظ ابن كثير، رحمه الله: قالوا: وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟

---

(١)سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٨).

وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السرارى؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟[١]

وأورد ابن المبارك بسنده أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أتى مشربة بني حارثة، فوجد محمد بن مسلمة ﷺ، فقال: يا محمد، كيف تراني؟

لقد كان الاحتساب على وليّ الأمر سمةً عامةً للمجتمع المسلم، وسلوكاً وهدياً متبعاً من الأفراد.. نُخباً كانوا أم عواماً، رجالاً ونساء.

قال: أراك كما أحب، وكما يحب من يحب لك الخير، قويا على جمع المال، عفيفا عنه، عدلا في قسمه، ولو مِلْتَ عدَّلناك، كما يعدل السهم في الثقاف. قال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٢).

ولم يوجد عند السلف الصالح خلطٌ بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة، والخروج على ولي الأمر من جهة أخرى.. بل كانوا يجمعون بين الاحتساب على ولي الأمر، وطاعته ولزوم جماعته، هذا هو هديهم رحمهم الله، مستمدين ذلك من قوله ﷺ: «**ثلاثٌ لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**»(١). فدلَّ الحديث على الجمع بين النصيحة لولاة الأمر، ولزوم الجماعة والطاعة، ولا تناقض بينهما.

وحين تقاعس أفراد المجتمع – إلا قليلاً – عن الاحتساب على السلطان تسارع الانحراف في المجتمع، واتسعت دائرة الموبقات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والنبي ﷺ حث على توجيه الحاكم وأمره ونهيه إلى درجةٍ جعل معها منـزلة بعض من يفعل ذلك مع منـزلة سادة الشهداء، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٥١) المقدمة، باب من بلّغ علماً حديث (٢٣٠) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٥) كتاب معرفة الصحابة، باب ذِكر إسلام حمزة بن

وما هذه المنـزلة الرفيعة لهذا المحتسب إلا لما في هذا النوع من الاحتساب من المصلحة العظيمة التي ستعود عليه وعلى سائر المجتمع بالنفع والصلاح.. فواهاً لرجل كتبه الله سيداً للشهداء!

***

عبد المطلب حديث (٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٧١٦).

احتسابٌ على العُبّاد

وهل نحتسب على العُبّاد؟

تلك الثلة الطاهرة.. القائمة الساجدة.. التي تقضي ليلها في مناجاة الله ونهارها في الجوع والعطش لله..

أولئك الأبرار الذين يذكروننا بالله .. المسارعون في الخيرات..

نعم!

فطالما وجد السلوك البشري فإن الحاجة إلى التوجيه والإرشاد قائمة، وهذا هو قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

دخل النبي ﷺ مسجده بالمدينة، فوجد، على غير العادة، حبلاً ممدوداً بين ساريتين في طرف المسجد، مربوطاً طرفاه فيهما، فتساءل ﷺ: «**ما هذا الحبل**»؟ فأجابوه بأنه حبلٌ ربطته أم المؤمنين زينب بنت جحش، رضي الله عنها، في الساريتين فتقوم تصلي من الليل طويلاً، تقف بين يدي ربها تناجيه، وتدعوه، حتى إذا تعبت أو نعست لجأت إلى هذا الحبل فأمسكت به

ليسندها، حتى تستمر في وقوفها ولكي لا تلجأ إلى القعود أو الانصراف من الصلاة والدعاء..

اجتهدت – رضي الله عنها – فقامت بهذا الفعل بمقصد طيب وحسن. لكنه اجتهاد يخالف مقصد الشريعة من اليسر والسماحة، فنهى النبي ﷺ عن هذا الأمر وقال: «**لا! حُلّوه. ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد**»(١).

لقد خشي النبي ﷺ أن تترهب أمته كما ترهبت طائفة من أهل الكتاب وغلوا في دينهم. ذلك أن الغلو مفضٍ إلى الخروج عن الشريعة البيضاء يميناً أو يساراً.. فوجب الاحتساب على أي خطأ يخلّ بالعبادة حين يصدر من أولئك الأطهار العابدين.

قال عمر بن يحيى: سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود ﷺ قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري ﷺ فقال: أَخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟

قلنا: لا.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٥٧) كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة حديث (١١٥٠).

فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن! إني رأيت في المسجد آنفا أمرا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرا.

قال: فما هو؟

فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيتُ في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصا فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة.

قال: فماذا قلتَ لهم؟

قال: ما قلتُ لهم شيئا انتظار رأيك أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم!

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال:

ما هذا الذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبد الرحمن! حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ﷺ أو مفتتحوا باب ضلالة؟

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. وأَيِّمُ الله، ما أدري لعل أكثرهم منكم.

ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج[1].

❊❊❊

(١) أخرجه الدارمي (١/ ١٢) المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي حديث رقم (٢٠٨).

احتسابٌ على النساء

في الطريق إلى المسجد.. حيث يتجه الناس إلى بيت الله، ليقيموا الصلاة ويناجوا ربهم.. كان أبو هريرة ﷺ يسير نحوه، إذ مرَّت به امرأة تريد الصلاة، قد هيأت نفسها لهذا الشأن العظيم، لكن الذي يلفت الانتباه رائحةُ طيبٍ فاح عبقه، وشمَّها من يمرُّ بها..

استوقفها أبو هريرة ﷺ وقال: إلى أين يا أمة الجبار؟

قالت: إلى المسجد.

قال: تطيبتِ؟

قالت: نعم.

قال: فارجعي فاغتسلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف، حتى ترجع فتغتسل**»[1].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٩٢) جماع أبواب صلاة النساء في جماعة، باب إيجاب الغسل على المتطيبة للخروج إلى المسجد ... حديث (١٦٨٢).

لقد أخبرنا النبي ﷺ أن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»[١] أي زيّنها في نظر الرجال وسعى في إغوائها والإغواء بها.

وهذا في حال خرجت المرأة في كامل حشمتها وحجابها!

فما الظن بصنيع الشيطان حين تخرج المرأة متطيبة أو متبرجة أو متكسرة!

وقد حذرنا النبي ﷺ من فتنة النساء تحذيرا شديدا.. فقال: «**اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٢].

وإذا كان هذا التحذير في ذلك الزمان، حيث تقلُّ حاجة المرأة إلى الخروج من البيت، ويغلب على تلك المجتمعات الستر والاحتشام، فكيف بزماننا هذا الذي أُشرعت فيه الأبواب لخروج المرأة من بيتها، إلى السوق، والعمل الوظيفي،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٧٦) كتاب الرضاع، باب (١٨) حديث (١١٧٣) وصححه الألباني في الإرواء (١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٩٨) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء حديث (٢٧٤٢).

والمستشفى، والمدرسة، والجامعة، وغيرها، مع ضعفٍ في قوامة الرجال وتساهل منهم، وضعف في ديانة المسؤولين، إلا من رحم الله!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: لأنَّ المرأة يجب أن تصان، وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل؛ ولهذا خصت بالاحتجاب، وترك إبداء الزينة، وترك التبرج، فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت، ما لا يجب في حق الرجل؛ لأن ظهور النساء سبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن[1].

في حين يفرِّط المجتمع في القوامة على النساء والاحتساب عليهن تتزايد المنكرات المتعلقة بهن: تبرج.. اختلاط.. خلوة محرمة.. علاقة محرمة.. ابتزاز..

فانهارت بيوت كثيرة، وتمزقت أسر عديدة، ووقع ظلم كبير لا يعرفه إلا الله ثم القائمون على الاحتساب .. فأين المنقِذون؟

***

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩٧).

أضرّ فتنة على الرجال

«**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[١].

صدق رسول الله ﷺ.. فهذه الجملة القصيرة في كلماتها بلغت مبلغاً كبيراً في وصف الواقع، ألم تر إلى توصيف الشاعر جرير حين قال:

إن العُيُونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ ... فتلننا ثُمَّ لمْ يحيينَ قتلانا

يَصرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَرَاكَ بِهِ ... وهنَّ اضعفُ خلقِ اللهِ أركانا

لا أحد يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة: حقيقة أن المرأة تفتن الرجل.. فهي حقيقة أثبتها القرآن: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

وأثبتتها السنة كما في الحديث السابق. بل أثبتتها السنّة في أمم قبلنا، قال ﷺ: «**اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٢]. وأثبتها الواقع.. المرأة فاتنة والرجل

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٦١) كتاب النكاح، باب الأكفاء في المال، وتزويج المقل الثرية حديث (٥٠٩٦).

(٢) سبق تخريجه ص(٩٩).

مفتون.. وفي حين تتقلص الحواجز، أو يرتخي الحجاب، أو تتهيأ الأماكن.. فإن الفتنة تقع.

لذا وجب إنكار كل ما من شأنه أن يوقع بين الفاتن والمفتون، ومنعه من إظهار المرأة لزينتها، بل وسفورها، وأن تعمل المرأة قريباً من الرجال، أو أن تخالطهم، مهما كانت الحاجة، ولو كانت لعبادة.

يجب منع كل ذلك، كلٌّ حسب استطاعته: ولي الأمر، ومن استأمنهم على مصالح المسلمين، ويجب على كل المسلمين.

لأن هذا مما يجلب البلاء على المجتمع، ويفسد دينه وأخلاقه وهويته.

قال ابن القيم، رحمه الله: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال: أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة. واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة. فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات، ولو

علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية قبل الدين لكانوا أشد شيء منعا لذلك»[١].

يجب عليك أيها المؤمن، أن تسعى لمنع الاختلاط، منعاً قاطعاً، حتى لا تكون فتنة، ولو ساغ الاختلاط في شيء لساغ في أجل العبادات: الصلاة «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»[٢].

أما تبرُّج النساء اليوم، وكشفهن عن وجوههن وشعورهن، فأمْرٌ لم تعرفه البلاد الإسلامية قبل الاستعمار، وهو يعني الذوبان في الثقافة الغربية المنحلة والتبعية للمستعمر، فيجب إنكاره وبذل ما يمكن بذله لتغييره، وإعادة النساء إلى السمت الأول، ولا قوة إلا بالله..

❊❊❊

(١) الطرق الحكمية (٢/ ٧٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٢٦) كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، ... حديث (٤٤٠).

احتسابٌ في كل الظروف

لو فصَّلنا المواطن التي يُؤمر فيها بالمعروف ويُنهى فيها عن المنكر.. ولو عددنا الأحوال التي يقوم فيها المحتسب بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما انتهينا من تفصيل هذه المواطن، ولما انتهينا من تعداد تلك الأحوال.

إنها باختصار.. كل الظروف وكل الأحوال.. وإلا لفسد المجتمع المسلم.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

إن تغيير المنكر واجب على كل أحد، ولا يعذر أحد بتركه.

فإن استطاع المؤمن أن يغيّر المنكر بيده فهذا أكمل وأفضل، والجهاد في سبيل الله يدخل في هذه المرتبة.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩) كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ... حديث (٤٩).

وإن لم تكن له سلطة أو يد، فلا مناص من تغيير المنكر بلسانه.. حيث ينكر باللسان.

وحين ينكر المحتسب ما يراه من المنكرات، فإنها قد لا تتغير في الواقع، وقد لا يُستجاب له من العصاة والخاطئين.. فما هو التغيير الذي حدث، إذن؟

وما الفائدة من جهد لا يكون له أثر حقيقي في تغيير الواقع؟ .. قد يتساءل البعض! في هذه الحال؛ فإن الاحتساب له فائدتان:

الأولى: الإعذار إلى الله بالقيام بهذا الواجب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

الثانية: عدم الإقرار بشرعية هذا المنكر. فإن السكوت عن المنكرات يضفي عليها شرعية وقبولا اجتماعياً.

وإن الإنكار باللسان هو حكمٌ على المنكر بالإعدام مع وقف التنفيذ، إلى أن ييسر الله تغييره باليد، وإعدامه من واقع المجتمع.

ولئن لم يستطع الناس تغيير المنكر الذي أنكره المخلصون باللسان، فإنهم سيبقون متحفزين إلى أن تأتي الفرصة الشرعية المواتية لتغييره باليد.

لكن الحال العامة للإصلاح قد تسوء، وقد يصعب معها التغيير باللسان.. حينها أمر النبي ﷺ بتغيير المنكر بالقلب!

وكيف يتغير المنكر بالوجدان والمشاعر؟

إنه لا يتغير على أرض الواقع، وإنما يتغير في قلب المؤمن.. فإن قلب المؤمن هو آخر ما يُلجأ إليه في الإصلاح والاحتساب والتغيير، فإذا لم يستطع المؤمن التغيير باليد تغييرا حقيقياً ملموساً فإنه ينتقل إلى تغييره في مفاهيم الناس وعقولهم وقلوبهم؛ وذلك بلسانه، وحين يعجز المؤمن عن هذا وذاك فلا مناص من أن يغيره بقلبه وينكره بوجدانه ويكرهه بمشاعره.. فإذا أخفق المؤمن في أن يجعل قيَمه ومبادئه تعرف المعروف وتنهى عن المنكر، فلا معنى لذلك سوى أن جذوة الإيمان في قلبه قد خبت، وآذن قلبه بالميل نحو قيم ومبادئ أولئك العصاة والخاطئين.. إنه في طريقه نحو الخذلان وفقد الإيمان.. قريبا جدا، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «**وذلك أضعف الإيمان**» ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❊❊❊

مدارج الإنكار

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

هذا الحديث العظيم أصلٌ في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو حديث في غاية الصراحة في وجوب تغيير المنكر على الجميع.

وفي الوقت نفسه.. جعل الإنكار على ثلاث مراتب، تتدرج حسب الاستطاعة من الأقوى إلى الأضعف.

وهذا يعني أنه لا يجوز لك أيها المؤمن أن تنـزل عن المرتبة الأقوى إلى المرتبة الأضعف إلا في حال واحدة: عدم الاستطاعة.

وهذا يعني أيضاً.. أنك في تلك الحال التي نزلت فيها عن

---

(١) سبق تخريجه ص(١٠٦).

المرتبة الأقوى إلى المرتبة الأضعف؛ تستصحب معك نية القيام بالمرتبة الأقوى لو قدرت عليها.

ومراتب تغيير المنكر حسب الأقوى كما في الحديث هي:

المرتبة الأولى: التغيير باليد.

وهي مرتبة يقدر عليها كل من كان له ولاية أو سلطة على الموقع الذي وقع فيه المنكر. فالرجل في بيته.. والمعلم مع طلابه.. ومدير المدرسة في مدرسته.. ومسؤول الدائرة مع موظفيه.. ومن نحا نحوهم.. كلهم قادرون على تغيير المنكر بأيديهم، ولا يعذرون إلا في حال وجود منكرٍ خارجٍ عن دائرة مسؤولياتهم.

وقد تتاح الفرصة لأن تنتدب جماعةٌ نفسها لهذا الأمر، في حال تخلّف السلطان عنه، كما فعل ابن تيمية رحمه الله وجماعته المحتسبون، حيث كانوا يغيِّرون المنكرات بأيديهم ما استطاعوا إلى ذلك.. لكن هذا الأمر يحتاج إلى أن يكون القائد فيهم من أهل الفقه والعلم والفضل، حتى تسير الجماعة على هدى وبصيرة، متوقية الزلل.

والمرتبة الثانية: تغيير المنكر باللسان

وهذه المرتبة لا ينبغي أن ينـزل إليها أصحاب الولايات

والمسؤوليات والإدارات، وإنما يلجأ إليها أفراد الناس وعوامهم وعلماؤهم.

ولقد كان علماء السلف رحمهم الله في المقدمة من ذلك، كما يمرُّ معك في ثنايا هذا الكتاب. وما جاء في النهي عن الإنكار في بعض الأحوال عن الأئمة، إنما هو من باب الخوف من بطش السلطان بالناس في ظرفٍ استثنائي؛ وإلا فإن هؤلاء الأئمة كانوا يضحّون بأنفسهم لأجل قول الحق، فالأخذ بأقوالهم منفصلة عن ظروف واقعهم أخذٌ في غير محله، وتضليل غير مقصود.

والمرتبة الثالثة: التغيير بالقلب.

حيث يترتب على الإنكار باللسان واليد مفاسد عظيمة تُدرأ بالاكتفاء بالإنكار بالقلب، كما أنَّه الحدَّ الأدنى من الإنكار للضعفاء والجبناء من المسلمين، والذين لا تتحمل نفوسهم معاناة الاحتساب وضريبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فلا أقل من أن ينكروا المنكر بقلوبهم.

فإذا لم يفعلوا فإن بناء الإيمان يتصدع في ذواتهم ويتهاوى في مجتمعهم.

***

مشروعٌ مجتمعيٌّ

الحديث السابق ذِكره «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» يفيد وجوب تغيير المنكر على عموم الناس، والعموم يشمل جميع الأفراد، كما يفيد عموم المنكرات.

هكذا يفيد اللسان العربي .. وهكذا فهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين .. وهكذا فعلوا.

لم يقتصر الاحتساب على مجموعات محددة تُعرف به إلا في العصور المتأخرة التي ابتعدت عن نور النبوة وهدي الكتاب.

ليس القصور بهذه المجموعات المحتسبة، سواء كانت كيانا بناه الحاكم، أو أفراداً اجتمعوا وتعاقدوا على الاحتساب.. ليس القصور بهم، وليس هذا موضع تقويم مجهوداتهم. وإنما التقصير يقع على مجموع المجتمع!

كيف فهمت شرائح من المجتمع أن الاحتساب والقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأنٌ لا يعنيهم؛ وإنما يعني غيرهم ممن ولاهم ولي الأمر أو ممن نذروا أنفسهم له وتعاقدوا عليه؟

كيف غفلت شرائح من المجتمع عن أثر الاحتساب على مجتمعهم.. بل على أنفسهم؟

كيف أصبحت هذه الشعيرة في مرتبة متأخرة من مراتب الدين لدى فئام من الناس، وكيف تراجعت في منظومة القيم لديهم .. أليست أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس؟

فبم صارت خير أمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

أليست أمة محمد ﷺ تعرف الحق وترحم الخلق؟

فأي رحمة بالناس أن تراهم يتهافتون على النار ثم لا تذبّهم عنها!

ثمّ أليس خطاب القرآن والسنّة للناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطابا عاما؟

فلماذا يعمد الناس إلى تخصيصة بهيئة أو جماعة؟

أين النصوص الشرعية الدالة على تخصيص ناس دون غيرهم للقيام بهذه الشعيرة؟

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروع المجتمع، بل

الأمة.. كل الأمة، حسب المراتب الثلاثة في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وبعض أهل العلم يراه ركناً سادساً من أركان الإسلام.

وإن على كل فرد من هذه الأمة واجباً عينياً حتمياً في القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيسأله الله تعالى عنه يوم القيامة.. عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ: «**لا يحقرن أحدكم نفسه**»، قالوا: يا رسول الله! وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا: كذا وكذا؟ فيقول يا رب خشية الناس، فيقول فإياي كنتَ أحق أن تخشى**»[1]. فأعدّوا للسؤال جواباً..

❋❋❋

(١) أخرجه ابن ماجه (٤/ ٣٦١) كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث (٤٠٠٨) وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه ص(٣٢٥).

تكليفٌ ربانيٌّ

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. في ضوء نصوص القرآن والسنة.. تكليف ربانيٌّ عام على مجموع الأمة، على الأفراد والحكومات، وعليه؛ فإنه لا يُعتبر في القيام به إذن الإمام، أو ولي الأمر، لأنه تكليف شرعي من الله.

والعمل عليه عند المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة.

الشيخ الزاهد أحمد بن محمد الخراساني البغوي (ت: ٢٩٥هـ) .. كان ذات يوم في المرسى، فوجد زورقاً فيه ثلاثون دنّاً (أوعية الخمر) فقال للملاح: ما هذا؟

قال الملاح: ما يلزمك؟ (ما شأنك بهذا لتسأل عنه).

فألح عليه الشيخ أحمد..

قال الملاح: هذا خمرٌ للمعتضد (الخليفة العباسي)!

قال الشيخ أحمد: أعطني ذلك المِدرَى (حجرٌ).

فاغتاظ الملاح وقال لأجيره: ناوله، حتى أبصر ما يصنع.

فأخذه الشيخ ونزل إلى الزورق فكسّرها كلها غير دنٍّ.

فأُخِذ إلى المعتضد، فقال له المعتضد: من أنت؟ ويلك!

قال الشيخ: محتسب!

قال المعتضد: ومن ولاَّك الحسبة؟

قال: الذي ولاَّك الإمامة يا أمير المؤمنين[1].

لم يكن سلفنا الصالح يرى أن الاحتساب والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلزمه إذن إمام ونحوه.

ناقش الإمام الغزالي – رحمه الله – هذه المسألة فقال: فقد شرَط قومٌ هذا الشرط، ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة. وهذا الاشتراط فاسد.

فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدلّ على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى؛ إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّمٌ لا أصل له.

والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهو الإمام الحق عندهم،

---

(١) انظر القصة بتمامها في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٧٦).

وهؤلاء أخس رتبة من أنْ يُكلَّموا!..وحكى الإجماع القولي والفعلي على ثبوته لآحاد الناس من غير إذن الإمام[١].

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من السلف الصالح يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر سرا وجهرا، في التجمعات وغيرها، دون أن يحصلوا على ترخيصٍ من الإمام بمزاولة (مهنة) الاحتساب، ودون أن ينكر عليهم أحدٌ من العلماء ذلك.

وحين توجد (هيئة) اختارها ولي الأمر لتقوم بهذه الشعيرة، فإن ذلك لا يُعفي عموم الناس من أنْ يروا المنكر فلا يغيروه، بل يجب عليهم تغييره بذاتهم أو بمساعدة هذه الهيئة التي اختارها ولي الأمر.

***

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٤١٣).

مؤمنةٌ تحتسب

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

قال مقاتل والكلبي: (عدن) أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها، محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها: الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصور الدرّ، واليواقيت والذهب، فتهبّ ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأذفر الأبيض[1]. هذا النعيم الخالد لمن أعدّه الله تعالى؟

أعدَّ الله لمن هذه صفاتهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٣٠٤).

للمؤمنات في الآخرة مثل ما للمؤمنين، وعليهن في الدنيا من الواجبات مثل ما على المؤمنين، إلا ما استثنته النصوص، صراحة أو استنباطاً.

وكما أن المنافقين والمنافقات يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ فإن المؤمنين والمؤمنات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. هكذا نصّ القرآن، فلتتحسس كل امرأة موقعها من هذا!

شعيرة الاحتساب ليست مقصورةً على الرجال دون النساء، بل هي شعيرة واجبة على النساء كما هي واجبة على الرجال.

قال العلامة محمد بن عثيمين، رحمه الله: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست خاصة بالرجال، بل حتى النساء عليهنَّ أن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر، ولكن في حقول النساء، ليس في مجامع الرجال وفي أسواق الرجال، لكن في حقول النساء ومجتمعات النساء؛ في أيام العرس، وفي أيام الدراسة، وما أشبه ذلك. إذا رأت المرأةُ المنكر تنهى عنه، وإذا رأت تفريطاً في واجب تأمر به، لأن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مؤمن ومؤمنة[١].

هذا هو مقتضى صريح الآية، ومقتضى عموم الأحاديث، ومقتضى التطبيق العملي من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين.

فهذه السيدة أم الدرداء، بينما تدرِّس في حلقتها، إذ جاءها الخليفة عبد الملك بن مروان، فقالت له: بلغني أنك شربت الطِّلا [نوع من الخمر] بعد العبادة والنسك. فقال: أيْ والله، والدِّمَا أيضًا قد شربتها. ثم جاءه غلامٌ كان قد بعثه في حاجة، فقال: ما حبسك لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ لَعَّانٌ**»[٢]. أمَّا أمُّ المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فقد تكاثرت الروايات في قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن مجتمعنا اليوم يتعرض لهجمة عنيفة على دين المرأة وحشمتها وحجابها وسَمْتها وعفافها، وأصبحت الحاجة اليوم

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١١) .

(٢) انظر البداية والنهاية (٩/ ٧٢).

أكثر إلحاحاً إلى أن تقوم المؤمنةُ بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتحمي بنات جنسها من مشروع التغريب المسفِّ.

وإن تقصير المؤمنات اليوم عن هذا الواجب له كبير الأثر في تفتيت الأسرة والمجتمع وضياع هوية المرأة المسلمة، ووقوعها في وحل الشهوات والشبهات. فهل من هبَّة للمؤمنات!

***

هل نستشير؟

حين رأى العالمُ الجليلُ أبو موسى الأشعري ﷺ بدعةَ التحليق بالذّكر، والعدّ بالحصى.. انطلق نحو إمام العلماء ابن مسعود ﷺ، يشاوره في الأمر، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيراً.

قال: فما هو؟

فقال: إن عشت فستراه. رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟

قال: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم!

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق،

فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟....[1]. وهذا أدبُ المحتسبين مع أهل العلم. وهو أدبٌ أصيل في الاحتساب: الاستشارة.

يحسن بالآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يستشير من يجد عنده المشورة النافعة وقت الحاجة. ولكن ما هو وقت الحاجة؟ وبشكلٍ آخر: متى يستشير المحتسب؟

لعله من نافلة القول بأن الإستشارة في كل صغيرة وكبيرة في الاحتساب غير سائغ، لا شرعاً ولا عقلاً..

وإنما في بعض الحالات التي ينبغي على المحتسب أن يقدرها بقدرها..

فعلى سبيل المثال: أن يكون الاحتسابُ على منكرٍ طارئ جديد لم يعهده المجتمع، كما فعل أبو موسى ﷺ.

أوأن يكون المحتسَبُ عليه من ذوي الجاه والمال، فيتلمّس المحتسِب الأدوات والطرق الأفضل في الإنكار.

أوأن يكون المحتسَب عليه ولي الأمر أو أحد عماله الأمراء.

---

(١) سبق تخريجه ص٩٧.

أوأن يكون المنكَر قد شاع وانتشر، فتكون الحاجة إلى عملٍ احتسابيٍ نوعي، أو عمل احتسابي غير تقليدي، لضمان مصلحة تغييره.

ونحو ذلك من الظروف والأحوال التي يرى أهل الفضل أن يجتمعوا لها..

أما الأصل في الاحتساب فإنه واجب في ذمة كل مؤمن، بل هو حقٌّ له في الدولة الإسلامية، لا يحتاج فيه إلى إذن من ولي الأمر ولا استشارة لأهل الفضل.

وهنا يجدر التنبيه إلى الالتفاف حول العلماء المحتسبين، قدر الإمكان، والاستفادة من رأيهم، عبر الوسائل المتاحة، فإن هذا فيه مصلحة عظيمة، ويدرء مفاسد كثيرة. والله الموفق.

***

زيّنوا الاحتساب

في قبلة المسجد الحرام بالمدينة النبوية يجلس نبينا محمد ﷺ وبعض أصحابه، يذكرون ربهم ويتعلمون دينهم ويتلون قرآنهم، في خشوع وسكينة، تحفهم الملائكة..

المسجد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

لقد كانت تلك البقعة من الأرض طاهرةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. طاهرة بأرضها الترابية. طاهرة بإمامها المعصوم ﷺ. طاهرة بالرجال الذين يؤمونها كل يوم خمس مرات على الأقل. طاهرة بما يتلى فيها من الآيات والأذكار والعلم. وبينما أولئك الرجال مع إمامهم ﷺ جلوساً.. لم يفجؤهم سوى أعرابي توجَّه إلى طرف المسجد، قد حصره بوله، فظنَّ أن تربة المسجد كأي تربة في أي مكان، وظنَّ أنَّ هذا المسجد كأي مكان مباح.. فتبوّل – أعزكم الله – هناك! مشهد لا تحتمله القلوب الطاهرة.. قام بعض الصحابة إليه مسرعين، يزجرونه وينهونه عن هذا الصنيع المشين.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه**»[١]. أي لا تقطعوا عليه بوله. يعني دعوه يكمل صنيعه! وقال ﷺ: «**دعوه، وأهريقوا عليه ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[٢].

فلمّا فرغ الأعرابي من بوله، قال له النبي ﷺ: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر. إنما هي لذكر الله – عزَّ وجلَّ – والصلاة وقراءة القرآن**»[٣].

لم يكن الأعرابي بحاجة إلى التعنيف والترهيب، فالمسألة لا تعدو كونها جهلاً بحرمة المسجد وطهارة بقعته وعظيم شأنه، الأمر الذي يمنع أن تدنس بيوت الله بمثل هذه الأقذار أو سواها.

استوعب الأعرابيُ الدرسَ النبوي الرقيق، وتقبَّل التوجيه الرفيق. وكانت هذه القصة إحدى لوحات السيرة الجميلة. شيء ما زيَّن هذه اللوحة.. إنه الرفق!

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٩٦) كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله حديث (٦٠٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١١٤) كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يسروا ولا تعسروا﴾ حديث (٦١٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٦) كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات ... حديث رقم (٢٨٥).

إن إنكار المنكر، لا سيما على الجهال ومن زلَّت بهم القدم لأول مرة، أو من حجبت الغفلة أبصارهم وبصيرتهم.. لا يزيّنه إلا الرفق.

الرفق في الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفتاح لقلوب أولئك الذين أخطؤوا وزلُّوا. لقد أغواهم الشيطان وخدعهم، وحسّن لهم صورة المنكر، فاحتاجوا منك إلى قلبٍ رحيم ودود، يعطف عليهم عند الخطأ، كما يعطف الوالد على ولده.. هكذا كان قلب محمد ﷺ.

فليس الهدف هو تسجيل موقف، بل الهدف هو اقتلاع هذا المنكر وإزالته من قلب صاحبه .. أيها المحتسبون والمحتسبات! زيّنوا احتسابكم.

❊❊❊

مع الرفق أيضاً

عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينـزع من شيء إلا شانه**».

وعنها – رضي الله عنها – عن النبيِّ ﷺ قال: «**يا عائشة! إن الله رفيق يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه**»[1].

كان السلف الصالح يتمثلون هذا الحديث في شؤون حياتهم، حتى في جانب الاحتساب وإقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال حماد بن زيد: حدثنا ثابت أنَّ صلة بن أشيم وأصحابه مرَّ بهم فتى يجرُّ ثوبه، فهمّ أصحاب صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره!

فقال: يابن أخي! إنَّ لي إليك حاجة.

قال: وما حاجتك؟

---

(١) أخرجهما مسلم (٤/ ٢٠٠٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، الحديثان (٢٥٩٣، ٢٥٩٤).

قال صلة: أحب أن ترفع إزارك.

قال: نعم، ونعمى عين. فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا كان أفضل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم[١].

فتأمل هذه القصة من التابعي الزاهد العابد صلة بن أشيم، وفقهه في النهي عن المنكر. وهذا الرفق الذي نستدعيه حين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلوكٌ ينبع من شعور الرحمة والشفقة وحب الآخرين والخوف عليهم، وهكذا يجب أن يكون المحتسب: شفيقا رحيما عطوفاً.

حينما تحدث الإمام أحمد بن حنبل، عن الرفق في الاحتساب، وهو فقيه الاحتساب، نبَّهنا إلى أمرٍ مهم، حتى لا يلتبس علينا هذا بذا..

قال رحمه الله: والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلاً مباياً بالفسق والردى؛ فيجب عليك نهيه وإعلانه، لأنه يقال: ليس لفاسقٍ حرمة. فهذا لا حرمة له[٢].

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢٣٨).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢١٢).

فتأمل الفرق بين حال الأعرابي الذي بال في المسجد، ومثله الرجل المسبل إزاره.. وبين الفاسق المجاهر المتمادي المستهتر.. الذي يرى الأئمة أنه يُغلظ عليه.

***

الموعظة في الإنكار

الموعظة هي تلك الكلمات الرقيقة التي تحمل تذكيراً بقوة الله وعظمته، وحبه والخوف منه.. هي تلك الكلمات التي لا يتعب العقل في تفسيرها وتحليلها، بل يستقبلها القلب والوجدان فتتأثر النفس بسماعها، وتخشع الجوارح لها.

والقرآن الكريم مليء بهذا الأسلوب المبارك، وتأمل قول الله تعالى ناهيا عباده عن الربا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢] فهذه الآيات بيَّنت حكم الربا في الإسلام، لكنها لم تأت بالحكم مجرَّداً، بل أحاطته بحديث دافئ مع القلب والروح والوجدان.. وهذه هي الموعظة.

من أنفع الأساليب في إنكار المنكر والأمر بالمعروف: الموعظة الحسنة.

يحدثنا أبو مسعود البدري ﷺ قال:كنتُ أضرِب غلامًا لي بالسَّوط، فسمعتُ صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود! اعلم أبا مسعود»!.

فلم أفهم الصوت من الغضب، فلمَّا دنا مِنِّي إذا هو رسولُ الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود».

فسقط السَّوْطُ من يدي من هَيْبَتِه. فقال ﷺ: «**اعلم أبا مسعود أنَّ الله أقدَرُ عليك منك على هذا الغلام**». فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله. فقال ﷺ: «**أمَا لو لم تفعل للفحتْك النارُ، أو لمسَّتْك النار**». فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبدًا.[1].

تأمَّل وقْع هذه الموعظة على قلب أبي مسعود رضي الله عنه.. في بعض حالات المنكر، يكون صاحبه سليم الفطرة، صاحب خير، وفي قلبه حب لله ومخافة منه.. وفي هذه الأحوال فإنه يحسن بالآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يقرن فعله بموعظة تقتلع جذور المنكر من قلب صاحبه، وتعيد تفكيره إلى الخط الصحيح، وهو مخافة الله تعالى واليوم الآخر، وتغرس فيه حسَّ المراقبة الذاتية، وتُنشئ في قلبه مؤشراً إيمانياً يوقظه عند كل خطيئة تسول له نفسه الأمارة بالسوء ارتكابها.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٨٠) كتاب الإيمان باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده حديث (١٦٥٩).

وكم يحدثنا المحتسبون عن تأثير الموعظة على أهل المناكير، وأنها حوّلتهم إلى صالحين ومصلحين.

وكم نحن بحاجة إلى الوصول إلى قلوب هذا النوع من العصاة لا لنغيّر منكراً رأيناه فحسب، بل لنغيِّر نفوساً إلى الأفضل، ونكون سبباً في دخولها الجنة، وتكون سبباً في تثقيل موازين حسناتنا بتوبتها وأعمالها الصالحة بعد ذلك.

❊❊❊

واغلظ عليهم

إن كانت الموعظة الرقيقة الحسنة تؤثر في صاحب المنكر.. وإن كان الرفق يزين الإنكار.. فإن الإغلاظ على صاحب المنكر في بعض الظروف هو الأولى!

حين يكون صاحب المنكر معلوم النفاق، أو متمادياً في مدِّ حباله، أو يتعدى ضرره إلى غيره، أو غير ذلك من ظروفٍ تجعل الإغلاظ مطلباً شرعياً.

وقد يحتاج الطبيب المداوي إلى شيء من إيلام المريض، لأجل مداواته، إما بجراحة أو بدواء كريه أو بكيّة نارية تذهب لبّه وتُذرِف دمعه.

والدم الفاسد لا يخرج إلا بشرطة حادة على يد المحجم! وهكذا أصحاب المنكرات.. منهم من لا يردعه إلا الإغلاظ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]

قال ابن عباس ﷺ: وأذهِب الرفق عنهم[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٩).

في غزوة تبوك، الغزوة التي قال الله عنها ساعة العسرة، والتي كانت أشد شيء على المسلمين، في وقتها ونوع عدوها وفي قدرتهم المالية، حيث موسم الصيف يُلهب الصحاري والحرار، ولا مال يغنيهم ولا عتاد يكفيهم، وعدوهم في هذه المرّة هو جيش الروم المجهز الكثير العدد القوي العدَّة.

بينما جيش المسلمين يقطع المفاوز القاحلة الساخنة، إذا بأحد المنافقين ينفث سمَّه.. لم يحتمل أن يخفيه في داخله، فقال كلمة يستهزئ فيها بأصحاب النبي ﷺ الذين فدوه بأرواحهم وأموالهم، ونذروا أنفسهم لهذا الدين..

قال هذا المأفون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء: أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء!

شيوخ الصحابة وساداتهم وعلماؤهم وسابقوهم.. يلمزهم بأنهم أكثر شراهة وأكثر كذباً وأنهم حين الحرب جبناء. لم تكن هذه الكلمة ليحتملها قلب المؤمن الشفاف.

سمعها الشهم عوف بن مالك رضي الله عنه، فقال: كذبت. ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ.

قام عوف بن مالك من هذا المجلس القذر، ليشق طريقه إلى النبي ﷺ.. لكن الوحي كان أسرع من عوف بن مالك!

نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالحادثة ونزل بالحكم عليها.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة:٦٥ - ٦٦].

جاء الرجل يجرُّ خيبته معه، إلى النبي ﷺ ليعتذر، وليمحو هذا العار من جبينه.. جاء وقد ركب النبي ﷺ ناقته وبدأت في المسير..

فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق!

قال ابن عمر ﷺ: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعةِ ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكُب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. والناقة تسير.. والرسول ﷺ لايلتفت إليه، إنما يُردِّد

على مسمعه قول الله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1]. إن الذي شرع الرفق، هو الذي شرع الإغلاظ.

***

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢).

الإثارة.. أسلوب ناجع

قد تضطر أحياناً لأسلوب الإثارة.. إثارة الناس على صاحب المنكر، إما لأنه لا ينفع معه الإنكار سرّاً، أو لأن التلطف لم يعُد يجدي معه نفعاً .. أو لأن صاحب المنكر إنسان مستهتر بالقيَم.. مستهترٌ بالمحتسبين.. مستهترٌ بالأعراض .. أو لأن صاحب المنكر لا يردعه إلا غضبُ الجماهير، ولا يثنيه عن فعلته إلا تأليب الرأي العام عليه .. أو لأن صاحب المنكر يغلق على نفسه الأبواب دون المحتسبين، فلا يحب أن يراهم، فضلاً عن السماع منهم، ومحاورتهم .. أو لغيرها من الأسباب التي قد تضطرك لإثارة الناس عليه.. إثارة الرأي العام في مثل هذه الظروف هديٌ نبوي في تغيير المنكر.

كلُّنا نعلم أن إكرام الجار واحترامه وصيانة عرضه مبدأ شرعي يجب الاهتمام به، وفي المقابل كلنا نعلم أن أذية الجار منكرٌ عظيم يكرهه الله ورسوله، وتأباه شيم الكرام، حتى من غير المسلمين. ألم يقل الشاعر الجاهلي:

أغـض الطـرف إن بـدت لـي جـارتي حتـــى يـــواري جـــارتي مثواهـــا

ثمَّ جاء الإسلام ليتمِّم مكارم الأخلاق، ويعلي من منزلة الجار في قيم الناس وأخلاقهم.

جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو إليه جاراً له فقد قيمة إكرام الجار.. فهو يؤذيه، وينغص عليه عيشه.

فأمره النبي ﷺ بأن يرجع إلى بيته، وأن يصبر على هذا الجار الذي لا يعين على الصبر عليه إلا الله.. فرجع إلى بيته يتجرع غصة ملازمة له. لعلّ الجار يتوقف عن أذاه.. لكن لا فائدة.

ثم جاء إلى النبي ﷺ مرة أخرى، يشكو إليه ذلك الجار.. الجار الذي جار.

لكن النبي ﷺ استمهله.. فقال للشاكي: (اذهب، فاصبر).

فذهب الرجل الشاكي إلى بيته وهو يحمل معه آلامه وأحزانه وكدره.. يحملها في وعاء من الصبر الذي يكاد ينفلق.

هل توقف الجار عن الأذى؟ هل انتفع بالموعظة الحسنة؟ هل كان لديه إحساس إنسان؟

لا.. رجع الرجل إلى النبي ﷺ يشتكي جاره للمرة الثالثة..

علم النبي ﷺ أن هذا الجار لا تنفع معه موعظة، وإنما يحتاج إلى موقف يؤدبه، لينزجر عن هذا المنكر.

فقال للرجل الشاكي: «**اذهب. فاطرح متاعك في الطريق**»[١].

فذهب الرجل فأخذ متاعه من منزله وألقاه في وسط الطريق، وهو مع متاعه، والناس يمرون عليه ويشاهدون منظراً غير مألوف: رجلٌ ومتاعه!

فكلما مرَّ عليه أحدٌ سأله عن الخبر! فيخبرهم بخبر جاره المؤذي الظالم، فلا تكون ردَّة فعل السائل إلا أن يلعن ذلك الجار ويدعو عليه..

وأصبح حديثاً للناس مصحوباً بالدعوات عليه واللعنات، فجاء ذلك الجار الغاشم إلى الرجل المظلوم الذي نالته أذيته وطالته شنائعه، فقال له: ارجع، فلن ترى مني شيئاً تكرهه بعد اليوم.

لم يكن هذا الجار الغاشم ليرتدع عن منكره لولا إثارة الناس عليه. والواجب على المحتسب أن يزن الأمور بموازينها، ويعرف متى يؤلّب الناس على صاحب المنكر، ومتى لا يحتاج إلى ذلك.

***

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٣٩) كتاب الأدب، باب في حق الجار حديث (٥١٥٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٦٨).

استعينوا بالله واصبروا

حين وعظ لقمان ابنه في الآيات المعروفة.. كانت الوصية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلَّد القرآن هذه الوصية لأهميتها وعُمْقِها، ثم نبَّه لقمان ابنه على قضية ملازمة للاحتساب، وسلوك حتمي يواجهه المحتسب.

إنه الأذى!!

قال لقمان: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]. فهو ينبّه ابنه إلى أنّ طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محفوفٌ بالأذى.. مليء بالأشواك.. فيه من المخاطر والصعوبات الشيء الكثير.. فهو، إذاً، طريق يحتاج إلى صبر، وصبر طويل.

وحين سئل رسول الله ﷺ عن أعظم الجهاد، فقال: «**كلمة حق عند ذي سلطان جائر**»[1].. فقد كان يعلم أن ذلك المحتسب حين يقول كلمة الحق ولا يخاف في الله لومة لائم.. أنه سيكون

---

(١) سبق تخريجه ص٩٢.

عُرْضة للخطر، بل عرضة للقتل، فلذلك كان أعظم الجهاد.

إن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر شخصٌ غير مرغوب فيه لدى أصحاب المنكر بوجه عام، لأنه حارس للأخلاق والعقائد، مدافع عن الأعراض والفضائل، واقف بالمرصاد لنـزوات الناس وشهواتهم.. فأنى سيكرمونه!

وإن العصاة والخاطئين بوجه عام، ليودون أن يكون الناس مثلهم، ويتمنون زوال أي عقبة في طريقهم نحو المنكر والخطيئة، ليظفروا بساعة من شهوة حرام.

لم يسلم أنبياء الله ورسله من هذا الأذى، وبعضهم قُتل، وبعضهم كاد أن يقتل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠].

ومن المهمِّ أن يعرف الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أنه يمضي في طريقٍ هذه بعض صفاته، وأنه يحتسب على أناس هذه وسومهم، فعليه أن يتحصن بالصبر ويتمنع به.

على الساحل الشمالي لتونس أسَّس بنو عبيد القداح دولتهم الرافضية التي تدَّعي الإسلام: الدولة الفاطمية، وادعوا أنهم من نسل فاطمة بنت محمد ﷺ، وحاربوا أهل السنة وأسروا وقتلوا

علماءهم، وحرَّفوا الدين وغيروا معالمه، واتسعت دولتهم الفاسقة، فدخلوا مصر، ثم الشام: فلسطين ثم سوريا، فكان علماء السنة ما بين مختفٍ أو هارب أو مقتول.

وأبو بكر الرملي ابن النابلسي، أحد أعلام أهل السنة في زمانه، كان يفتي بالتصدي لهم وقتالهم وتكفيرهم، وظهرت في الأرجاء فتواه بأنّ منْ كان معه عشرة أسهم فليرمِ الروم بسهم وليرم العبيديين بتسعة، فهم أخطر من الروم النصارى رغم ادعائهم الإسلام.

وحين استولى العبيديون على فلسطين، خرج من الرملة إلى دمشق، فلما استولى العبيديون على دمشق، ألقي القبض عليه، ونُقِل إلى مصر حيث المعزّ العبيدي..

فقال له المعز: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمي في الروم سهماً وفينا تسعة!

فقال الإمام النابلسي: ما قلت هكذا.

قال: فكيف قلت؟

قال: إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة، ويرمي العاشر فيكم أيضاً.

فسأله المعز:ولم ذلك؟

قال: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم.

فأمر المعزُّ العبيدي بإشهاره في أول يوم .. ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً.

وفي اليوم الثالث، أمر جزاراً يهودياً بسلخه حيّاً.

فسُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر، حتى بلغ العضد، فرحمه السلاخ وأخذته رقة عليه، فوكز السكين في موضع القلب، فقضى عليه، وحشي جلده تبناً، وصُلب[1]. عرف الطريق فتزوَّد بالصبر، رحمه الله.

❊❊❊

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٩).

احتساب جماعي

كان للأمير الأعرابي عساف بن الأمير أحمد بن حجي كاتبٌ نصراني من أهل حوران بالشام، ولِما لهذا الكاتب من حظوة لدى الأمير؛ فقد أمن العقوبة وأساء الأدب، وتطاول على مقام سيدنا رسول الله ﷺ فسبّه وشتمه.

كان ذلك في شهر رجب سنة (٦٩٣ هـ).

فشهد جماعة من المسلمين ذلك، وهرعوا إلى شيخ الإسلام ابن تيمية يخبرونه بما حدث، فلجأ هذا الكاتب إلى أميره ليحميه، فاجتمع ابن تيمية وشيخ دار الحديث زين الدين الفارقي، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة بدمشق، ومعهما جمع من الصلحاء وعامة الناس الذين غضبوا لرسول الله ﷺ، فكلماه في أمر الكاتب النصراني، فاستدعى نائبُ السلطنة الكاتبَ، وخرج الشيخان والناس معهما من عنده.

وفي الطريق إلى نائب السلطنة يسير الأمير عساف وكاتبه النصراني، فلما رأى الناس النصراني سبّوه وشتموه، فقال

الأمير عساف: هو خيرٌ منكم! يعني النصراني، فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت الحجارة الأمير عسافاً، واشتبك العوام بهما، من دون تدبير من الشيخين.

غضب نائب السلطنة غضباً شديداً، لانفلات الأمور، وأَنِف أن يُستهان بالإمارة، واستدعى الشيخين، فزجرهما، وضربهما بين يديه، وحبسهما في سجن العذراوية، وهاج الناس فخاف النصراني، وأعلن إسلامه ليحقن دمه.

ثمَّ ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول) والذي بيَّن فيه أن حق النبي ﷺ لا يسقط بالإسلام، وعمره آنذاك (٣٢) سنة[1].

قد تظهر الحاجة إلى أن يكون الاحتساب جماعياً.. فهذا أمرٌ لا يمنع الشرع منه أصلاً، وفيه من المصلحة الشيء العظيم، حيث يكون للاحتساب هيبة في نفوس أصحاب المنكرات، والقيام بما لم تقم به السلطنة من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتربية الناس على القيام بهذه الشعيرة.

---

(١) انظر القصة في البداية والنهاية (١٣/ ٣٧٤).

وقد يكون أصحاب المنكر أكثر أو أقوى فيحتاج المحتسب إلى من يعينه ويناصره.

وقد يكون المنكر أمراً تقرُّه السلطنة أو تغمض عينيها عنه، فتبرز الحاجة إلى قوَّة شعبية تغيِّر المنكر.

لم ترد نصوص من الكتاب والسنة تمنع من ذلك، بل جاءت النصوص بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر والتعاضد.. فهو مقصد شرعي.

وقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية جماعة يحتسبون معه ويساعدونه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان هو رأسهم في ذلك ومرجعهم، وكانوا معروفين في دمشق بين الناس ولدى الأمراء.

قال ابن كثير في أحداث سنة (٦٩٩هـ): وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب .... دارَ الشيخ تقي الدين بن تيمية – رحمه الله – وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف (أوعية وقِرَب) وأراقوا الخمور، وعزّروا

جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك[١].

إنما ينبغي التنبيه على أن الاحتساب الجماعي مما يُستشار فيه، ويُتحرى في آلياته الموازنة بين المصالح والمفاسد، ويُضبط بميزان الشريعة؛ حتى لا يتحوَّل إلى المحظور.

***

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٢).

منافذ الشر

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء:٣٢].

القرآن الكريم إذ يحذّر من الوقوع في الموبقات، يحذّر أيضاً من الاقتراب منها.. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

أَذِنَ النبي ﷺ بخروج النساء إلى المساجد، ونهى عن منعهن من ذلك، فقال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»(١) وكان نهيه للرجال حيث لا ترغب فطرة الرجل السويَّة أن تكرر موليَّته خروجها من البيت، ولو كان لخروجها من بيتها مسوغات ومبررات، ذلك أن فطرة الرجل تدرك ما يتبع خروج المرأة من بيتها: الفتنة.

الرسول ﷺ أرشد إلى سدّ ذريعة الفتنة في خروج المرأة إلى المسجد، ووجّه أنظارنا إلى إغلاق أبواب الشرور ومحاصرتها..

فقال ﷺ في تمام الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه «**ولكن**

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٨٦) كتاب الجمعة، باب .. حديث (٩٠٠) ومسلم (١/ ٣٢٧) كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج متطيبة حديث (١٣٦).

ليخرجن تفلات»[١] أي غير متطيبات، و يقال: امرأة تفلة إذا كانت متغيرة الريح[٢]، قال ابن الأثير: «من التفل وهو الريح الكريهة»[٣].

وفي حديث آخر: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسَّ طيباً**» وقوله ﷺ: «**أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة**»[٤].

لاحظ أيها الموفق أن النهي لم يقتصر على ما دلَّ الدليل على أنه إثم في ذاته، بل تعدَّى ذلك إلى كلِّ ما يمكن أن يكون سبباً للفتنة والإثم والخطيئة.

إنه التفسير النبوي العملي لنهي الله تعالى عن الاقتراب من الخطيئة.

وبهذا يجب على المؤمن أن يحتسب على منافذ الشر.

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١٥٥) كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد حديث (٥٦٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ١١٣).

(٢) فتح الباري (٢/ ٣٤٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث (١/ ١٩١).

(٤) أخرجهما مسلم (١/ ٣٢٨) كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد ... الحديثان رقم (٤٤٣،٤٤٤).

يجب عليه أن يأمر الناس بالتحرز من المنكر.

يجب عليه أن ينهى عن الفتنة، وينهى عن أسبابها.

وحين نرى من يفعل ذلك.. فلا يجوز لنا أن نفسِّر هذا الأمر والنهي بالتنطع والتشدد، أو نوصمه بالتعدي على شرع الله والمغالاة فيه.. كلا! بل هو هديٌ نبويٌ، وهدي سلفي، سار عليه المسلمون طيلة القرون الماضية في الكثير من شؤون حياتهم، وكان سِمَة بارزة في الحضارة الإسلامية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**».

قام رجل، فقال: يا رسول الله! امرأتي خرجت حاجّةً، واكتتبت في غزوة كذا وكذا! قال ﷺ: «**ارجع فحجَّ مع امرأتك**»[1]. أمرٌ ونهيٌ .. خشية الفتنة، ولم تقع الفتنة بعد.

***

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٩٥) كتاب النكاح، باب لا يخلونّ رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة حديث (٥٢٣٢).

الاحتساب بوعي

لا يمكن أن يأمرَ بالمعروف إلاَّ من عرَفه. ولا يقدر على إنكار المنكر إلاَّ من ميّزه[١].

هذه كلمات الإمام ابن حزم، رحمه الله. والتي يُبيِّن فيها – بإيجاز – ما هو العلم الذي يُشترَط للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وأنه لا يشترط أن يكون المحتسب عالماً مجتهداً، فإن هذا تكلُّف لا دليل عليه من كتاب ولا سنة.

وإنما نشترط على المحتسب معرفته بالمنكر الذي يحتسب عليه حتى لا يوقع الناسَ في الحرج.

إذن.. العلم المشروط هو العلم بالمعروف الذي يريد أن يأمر به، والعلم بالمنكر الذي يريد أن ينهى عنه.. لا غير.. علماً بحقيقتهما، وحكمهما.

والعلم بحقيقة المنكر درجات.. علم بوجود المنكر. وعلم بماهية المنكر. وعلم بأبعاد المنكر وامتداداته.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم (٥/ ١١٨).

متى ما تحقق شيئاً منها وجب عليك الإنكار.. والأفضل أن يحقق كل الدرجات.

بعد ثورة (٢٣) يوليو (١٩٥٢م، ٢/ ١١/ ١٣٧١هـ) في مصر، حكم القائد محمد نجيب الجمهورية المصرية، وسرَّب للإعلام قوله: سنساوي المرأة بالرجل في جميع الحقوق.

وكان لكلامه صدى في الصحف والإعلام. لا شك أن هذا الكلام منكر! ويجب إنكاره على الفور. ولكن حين تُدرك أبعاد هذا الكلام، وكيف قيل، وكيف تناقلته وسائل الإعلام، فعندها سيكون لك أسلوبك الخاص في إنكار المنكر.

كان شيخ الأزهر حينها هو العالم التونسي: محمد الخضر الحسين..

لما سمع شيخ الأزهر بهذه المقولة، اتصل بالرئيس محمد نجيب، وقال له: إما أن تعتذر عن كلامك علَناً، وإلا سأنزل غداً بكفني إلى السوق، وأدعو الناس إلى مواجهتك.

فجاءه أعضاء مجلس الثورة.. جاؤوا جميعا إليه في مكتبه.. في مشيخة الأزهر وقالوا له: يا شيخنا هذا الأمر صعب ولكننا نقول لك: هذا الخبر غير صحيح.

قال: لا ينفع هذا الكلام. أريد كما أعلنت أمام الملأ أن تُكذّب الخبر أمام الملأ، وإلا سأنزل غدا إلى الشارع. والله لن أقف حتى أنتصر في هذه المعركة أو تذهب روحي.

حين رأوا إصرار شيخ الأزهر على موقفه قام محمد نجيب خطيباً وأعلن تكذيب الخبر وأنه مزيف، واعتذر بشدة عن هذه الإثارة، وقال: كيف أقول شيئاً يخالف كتاب الله....

فتأمل موقف الشيخ الخضر، حين أدرك أبعاد قضية مساواة المرأة بالرجل، قام بتغيير المنكر بأسلوب خاص فعّال يتوافق مع حجم المنكر وأبعاده. رحمه الله رحمة واسعة.

❊❊❊

يقظة التوحيد

التوحيد أساس كل خير. ومفتاحٌ للجنة. والشرك بالله أعظم ذنب، ولا ذنب بعد الكفر. والمشرك لا يجد ريح الجنة، فضلاً عن أن يدخلها.

وواجب المؤمن أن يحرس عقيدته حتى لا تختلط بالشرك.. كأنما يحرس بيته في الجنة حتى لا يلجأ إلى النار.

والشيطان أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم، ويضلهم. فهو حريص على أن يوقع الناس في الشرك بالله، فإذا يئس من إيقاعهم في الشرك، اجتهد في إيقاعهم في البدع.. وقد نجح الشيطان في كثير من جهوده الإضلالية.. فبدأ الشرك في بني آدم بعد أن تدرج بهم الشيطان، حتى عبدوا صور رجال صالحين: ودٍّ وسواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونسرٍ..

وعمرو بن لحي الخزاعي، خدعه الشيطان وزيَّن له عبادة الأصنام، ورأى الناس خارج الجزيرة العربية يعبدونها، فجلبها إلى مكة، فعبد الناس الأصنام عند كعبة الله.

كل ذلك جرى في حين غفلة من الصالحين، سكتوا عن هذه

الطوام فاستفحل أمرها، وأصبح الشرك بالله ثقافة معتادة.

إن الواجب على كلِّ موحِّد أن يكون يقظانَ تجاه العقيدة، فإذا رأى ما يشوبها أو يخلَّ بها انتفضت أحاسيسه واستيقظت مشاعره، فأنكر ما رآه أو ما سمعه، دون توانٍ أو تساهل أو تكاسل، بأسلوب حكيم يضع الأمور في موضعها الصحيح.

ذات مرَّة.. وبينما رجل يتحدث إلى النبي ﷺ إذ قال: ما شاء الله وشئت.

فقال النبي ﷺ مستنكراً هذا القول: «**أجعلتني لله نداً! ما شاء الله وحده**»[1].

فمع كون المتحدث مؤمناً، قد خلع عن رقبته أغلال الشرك، إلا أن الرسول ﷺ لم يكن ليتسامح مع أي شيء يخل بشأن التوحيد، ولو كان بمجرد الألفاظ، التي لا يعتقد القلب بما فيها.

أولى ما يأمر به الآمرون بالمعروف، وينهى عنه الناهون عن المنكر هو ما يتعلق بعقيدتهم.. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

***

(١) سبق تخريجه ص(٨٣).

أعرف المعروف

الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال .. وهي عمود الإسلام .. وأعظم شرائعه .. وهي قرينة الشهادتين .. وإنما فرضها الله ليلة المعراج.

وخاطب بها الرسول ﷺ بلا واسطة، لم يبعث بها رسولا من الملائكة .. وهي آخر ما وصَّى به النبي ﷺ أمته .. انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١].

إذا ثارت حفيظتنا لأجل غيبة انتُقِص فيها من مسلم، أو انتفضت غيرتنا من معاكسة رمقناها في سوق أو شارع.. فإنه لا أعظم عند الله من شرك يتلبس به مسلم، أو فرض صلاة يتهاون بها موحّد.

لذا لزم الأمر بأعرف المعروف من الأعمال وهو الصلاة، كالنهي عن أنكر المنكر وهو الشرك بالله.

الأمر بالصلاة شريعة قديمة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٧٠).

صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤ - ٥٥].

كما أن الأمر بها شريعة محكمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

وكان من هديه ﷺ التشديد في متابعة المتخلِّفين عن صلاة الجماعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده! لقد هممتُ أن آمر بحطب فيُحْطَب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤمَّ الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرِّق عليهم بيوتهم**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كانت الصلاة إذا حضرت على عهد النبي ﷺ سعى رجل إلى الطريق، فنادى: الصلاة الصلاة(٢).

وكان من هدي السلف – رحمهم الله ورضي عنهم – أنهم إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد، وكانت الأسواق تخلو من التجار، وكانوا في أوقات الصلاة يستأجرون بعضاً من أهل

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢١٥) كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة حديث (٦٤٤).

(٢) أخرجه ابن خزيمه في صحيحه (١/ ١٩١) باب ذكر الدليل على أن الآمر بلالاً أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة كان النبي ﷺ... حديث (٣٦٩).

الذمة، ليحفظوا الحوانيت إلى أوان انصرافهم من المساجد.

أكثر مظاهر مجتمع المسلمين وضوحاً هو إغلاق الأسواق حين تقام الصلاة والتنبيه على ذلك..ولا يعرف ذلك جلياً إلا من رأى الفرق بين مجتمع يحدث فيه هذا ومجتمع آخر لا يحدث فيه.

إن المحافظة على هذا المظهر العظيم من مظاهر المجتمع المسلم من الأهمية بمكان، ولا يكون ذلك إلا بأمر الناس بالصلاة وعدم والاعتماد على إيمانهم، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه وسائر السلف الصالح، ونهي العاملين في الأسواق وغيرها وقت الصلاة.

❊❊❊

مكافحة الظلم

جاء في الحديث القدسي العظيم: «يا عبادي! إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً.. فلا تظالموا»[(١)].

الظلم منكر عظيم جاءت الرسل بمكافحته، ومحاربته، وكفّه عن المستضعفين والمقهورين من الأمم والشعوب..

فهذا شعيب – عليه السلام – ينادي قومه ويعظهم وينصحهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف:٨٥].

لا بدّ من مواجهة الظالمين، وبيان أن ما يفعلونه بسبب استقوائهم هو محض فساد.

لك أن تحتسب مظلمتك عند الله، ولك أن تسكت عن ظلمٍ يصيبك من ظالمٍ ما، لكنّ الذي لا يجوز السكوت عليه هو أن

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم حديث (٢٥٧٧).

ترى الظلم يقع على غيرك، ثم لا تحرّك ساكناً، ولا يهتز لك رمش في سبيل رفع الظلم عن غيرك، فتكون شريكاً للظالم بسكوتك، فضلا عن أن تزكيه وتمدحه وتؤيده..

أُدخِل الإمام سفيان الثوري، على خليفة المسلمين أبي جعفر المنصور، بمنى أيام الحج، وقد كان أبو جعفر من الحكام الظلمة، فقال أبو جعفر لسفيان: ارفع حاجتك! أي اطلب ما تريد..

قال سفيان: اتقّ الله! فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً.

فطأطأ أبو جعفر رأسَه، ثم قال: ارفع إلينا حاجتك.

قال سفيان: إنما أُنزِلْتَ هذه المنزلة – يعني الخلافة – بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل لهم حقوقهم.

فطأطأ أبو جعفر رأسه، ثم قال: ارفع إلينا حاجتك.

قال سفيان: حجَّ عمر بن الخطاب ﷺ، فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً. وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها. وخرج سفيان..[1]

---

(١) انظر القصة في سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٢) .

إن مثل هذا الموقف من الإمام الثوري إذا تكرر لهو حريّ أن يجعل الظالم يكف عن بغيه على الناس، وكم في مجتمعات المسلمين من مقهور ومظلوم!

وكم في مجتمعات المسلمين من ظلمة كبار وآخرين صغار! ألجؤوا الناس إلى الرشاوي والسرقات والخداع وبيع الأعراض.. ألا يستحق كل ذلك أن يقف المحتسبون في وجه هذا اللون من الفساد، ويردعوا أهله!

***

أم الخبائث

الخمرة، لعنها الله.. ولعن شاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[١].

هي دمار البيوت والمجتمعات.. كم فرّقت بين زوجين! وكم أحالت السعادة إلى شقاء!

وإن الفرد – وكذا المجتمع – حين يتعاطاها فإنه يحكم على ذاته بالخراب والفناء والانحلال، وأول ما يخرب فيه دينه ثم قيمه وأخلاقه، ثم جسده، وما بعد ذلك إلى أن يصبح عضواً موبوءاً يجب بتره.

في إحصائية رسمية معتمدة لدى منظمة الصحة العالمية عام (٢٠١١م): يقضي (٣٢٠٠٠٠) شاب من الفئة العمرية (١٥-٢٩) سنة نحبهم كل عام لأسباب لها علاقة بالكحول! وتقول أيضا: هناك علاقة بين الكحول وبين كثير من المشاكل الاجتماعية والتنموية[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٢٦) كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر حديث (٣٦٧٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٧٠٠).

(٢) الموقع الرسمي للمنظمة http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs٣٤٩/ar

الخمر أسهل وسيلة ينفذ منها أعداء الإسلام إلى الشباب المسلم، فيحولونهم إلى مجموعة من العاهات والأمراض والرذائل والعملاء.

الخمر أداة حرب على المجتمع المسلم.. فإذا أردت حماية المجتمع وتنميته والنهوض به، فيجب ألا يغيب عن بالك أن تكافح صناعة السُّكْر وثقافته.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

هل وَصْفٌ لأثر الخمر أدقُّ من وصف الله له! ومهمة المحتسب تكمن قبل أن يستفحل الخراب.. قبل أن تتحلل الأخلاق.. قبل أن يستطير شرره على من حوله.. وإنه والله ليتملكني العجب من عمق تربية الإسلام لأهله الأولين على الاحتساب إلى أن أصبح الاحتساب لديهم عادة تلقائية، فهذا أنس ﷺ يقول: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب، وسهيل بن بيضاء، ونفرا من أصحابه عند أبي طلحة؛ وأنا أسقيهم، حتى كاد الشراب يأخذ منهم.

فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟

فما قالوا: حتى ننظر ونسأل؛ فقالوا: يا أنس! اكف ما بقي في إنائك.

فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ[١].

وهذه حقيقة إسلام المرء حين يتمكن فيه.. يصبح قوَّة دافعة للخير في المجتمع، دامغة للشر فيه، حامية للمجتمع، حارسة لفضائله وأخلاقه وقيمه.

الاحتساب على الخمور ومصانعها وسهراتها هو أحد واجبات اليوم، وأحد فرائض الوقت.. إنه مرابطة في ثغرٍ لا يقلّ أهمية عن ثغور الجهاد، فلم يعد الخمر مجرد ذنب، بل ذنب يقود إلى كوارث، وإن الذين يحتسبون على هذا النوع من المنكرات يُعدُّون في المرابطين في سبيل الله.. وكلاهما يؤدون رسالة واحدة.

❊❊❊

(١) أخرجه الإمام أحمد، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨) وأخرجه البخاري في الصحيح من أكثر من وجه، انظر (٣/ ١٢) كتاب الأشربة، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر.

هل المحتسبون مرابطون؟

في تحليل بديع، كعادته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: كان النبي ﷺ وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعانٍ منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة. فجعلهم وهم في دار إقامة: مرابطين، وعلَّل ذلك بقوله:

فإن الرباط هو المقام بمكان يُخيفه العدو، ويُخيفُ العدو، فمن أقام فيه بنيَّة دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات، قال رسول الله ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**»[١] رواه أهل السنن وصححوه[٢].

أعتقد - والله أعلم - أن المحتسبين في المجتمعات الإسلامية، اليوم، سواء كانوا رسميين أو غير رسميين، ينطبق عليهم كلام ابن تيمية - رحمه الله - لأنهم يحرسون البلد من اختراقه فكرياً وعقائدياً وأخلاقياً. فهم في رباط.. وأي رباط! ..

حيث تتعرض المجتمعات الإسلامية اليوم إلى هجوم شرس

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٣٤٧) كتاب الجهاد، باب فضل الرباط حديث رقم (٣١٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٨).

للقضاء على ما تبقى من دينها وأخلاقها وعفتها، بشكلٍ ممنهجٍ ومدروس، على يدِ منظمات وأفراد، وبتمويل حكوماتٍ وأهل مال قد نصبوا العداء لله ولدينه ولعباده، فهم في دَأَب لا ينقطع، وجهد لا يمل في ابتكار وسائل الإضلال والإغواء.. وسائل لإغراق هذه المجتمعات في أوحال الرذيلة ومعاطن الفسق، بهدف إبعادها عن دين الله، وإبقائها في نوم عميق عن مصالحها الدينية والدنيوية، تريد منها نزع هويتها وإذلالها في السير في ركاب غيرها.

فيقوم المحتسبون اليقظون.. يقومون بصد هذا العدوان على المجتمع المسلم الوديع. فيغيرون المنكرات.. ويحرسون الفضيلة.. ويحامون عن الهوية.. ويدعون إلى الخير.. ويقوّمون الاعوجاج.. ويحاربون الرذيلة.. ويكافحون الجريمة.. ويجففون منابع الإفساد.. ويسعون إصلاحاً للسفينة قبل أن تغرق.. وللجدار قبل أن يتصدع.. وللسدِّ قبل أن يتهدَّم..

وإذا وجب في الشريعة دفعُ الصائل الذي غايةُ مراده إتلافُ النفس الآدمية.. فكيف بدفع الصائل الذي يتلف دين الناس وأخلاقهم وقيمهم!

ويدل لهذا المعنى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣] .. حيث دلَّت الآية على أنَّ في مجتمع المسلمين من تجب مجاهدتهم، وهم المنافقون، والرباط أحد مفردات الجهاد، والجهاد جزء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فهنيئاً للمحتسبين ما منَّ الله به عليهم من اصطفائهم لهذه المنقبة العظيمة، وهنيئاً لهم الأجر الذي يدخره الله لهم، والذي قد لا ندرك حجمه!

إن المحتسبين اليوم يقفون على ثغر الدين والأخلاق في المجتمع، وقد يكونون باحتسابهم أكثر إثخاناً في عدوهم المتربص لهم من الأبطال الذين يقفون في ثغور الجهاد.. وكلاهما في رباط! وكلٌ منهما درجات.

❊❊❊

الاحتساب الوقائي

درهم وقاية خير من قنطار علاج.

حكمة قصيرة ذات مفهوم واسع؛ مفاده أن السعي لاتقاء الشر أفضل من بذل الجهود في رفعه.

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني[1].

والتربية الوقائية إحدى ركائز التربية الثلاثة التي لا يستغني عنها فرد أو مجتمع: الوقائية والبنائية والعلاجية، بل التربية الوقائية أولى ما تجب العناية به.

وكذلك الاحتساب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هو أداة للتربية الوقائية في بعض ظروفه، كما أنه أداة للتربية العلاجية في الظروف الأخرى. فالأمر بغض البصر.. والنهي عن التخوُّض في أعراض المسلمين.. والنهي عن دخول البيوت بلا استئذان.. والأمر باستئذان أهل البيت الواحد على بعضهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧/٤) كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة حديث (٧٠٨٤).

في أوقات مخصوصة.. ونهي النساء عن إبداء الزينة لغير المحارم المذكورين.. والنهي عن ضربهن أرجلهن للإعلام بالزينة الداخلية.. والأمر بالاستعفاف.. ونهي القواعد من النساء أن يتبرجن بزينة.. كل ذلك بعض الأمر بالمعروف، وبعض النهي عن المنكر الذي ذكرته سورة النور، على سبيل التربية الوقاية، وتحديداً: الوقاية من الانحراف الأخلاقي.

ثم خُتمت السورة بالتحذير الصاعق: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

إن المسلم حين يمرُّ بسوق، أو يتنـزَّه في حديقة، أو يكون على شاطئ البحر، أو يعتاد المستشفى للعلاج، أو لزيارة مريض.. أو غيرها من الظروف.. فإنه مطالَبٌ بأنْ يكون حارساً للأخلاق متيقظاً للنقائص، يهدي للناس سلامه، ويذكرهم بالله، ويأمرهم بالمعروف.. بغض البصر.. بتقوى الله.. بالتستر.. بالاحتشام.. بمراقبة الله.. بالصلاة، وينهاهم عن المنكرات.. عن ترك الصلاة.. عن إطلاق البصر في ما حرم الله.. عن السفور والتبرج.. عن التساهل في الحجاب، في أدب رفيع، وصبر على الأذى، ورقيّ في اللغة.

وبهذا السلوك سيكون المجتمع في بحبوحة من أمره، وأمان على دينه وأخلاقه، فهناك من هو متيقظ لها.

ومن الاحتساب (الوقائي) تجفيف منابع الشر، وإغلاق أبواب الشرور، والعمل على تغيير المنكرات التي تقرُّها الأنظمة الحكومية والتي تفضي إلى الفساد، كتشريع الاختلاط في أماكن العمل الوظيفي والمستشفيات ونحوها، وإباحة الربا في المعاملات الاقتصادية، واستيراد المناهج والمقررات التربوية من مؤسسات كافرة، ونحوها من المنكرات التي تجلب الويلات على المجتمع.

ومن الاحتساب (الوقائي) السعي لكفِّ القنوات الفضائية شرورها عن الناس في إفساد عقائدهم وأخلاقهم، والمواقع الإلكترونية والشبكات الاجتماعية في نشر الإباحية والشرك بالله.

إنها حياة المجاهدة والرباط.. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

❊❊❊

مؤسسات الضرار

مظاهر متعدّدة يمكن اختصارها في كلمتين: مساجد الضرار.

ومسجد الضرار الأول هو مسجد أسسه عصابة من المنافقين بتمويل متفق عليه، في ظاهره عملٌ طيب يخدم المصلين، ويسهل عليهم عبادتهم.

لكنه في حقيقة الأمر هو لتفريق المسلمين، وليجد من في قلبه مرضٌ غرفةَ عمليات للخطط الشيطانية ضد المجتمع المسلم، ومركزاً لتجمع أجناسه هناك، وفرصة لتصيُّد البسطاء من الناس وإيقاعهم في حبائل النفاق، عن طريق تشويش الأفكار وبث الشبهات.

لقد جاء النهي الرباني صريحاً للنبي عن الاعتراف به.. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨].

فخرَّبه النبي ﷺ لما فيه من مفسدة متحققة، وكان هذا تغييراً للمنكر بيده.

وإن مساجد الضرار اليوم متعددة، ولها أثواب متنوعة، في ظاهرها صلاح المجتمع، وفي باطنها السمِّ الزعاف. صالونات

ونوادٍ تبث سموماً فكرية.. مقاهٍ ومكتبات تلوّث عقول الشباب والفتيات.. صحف سيارة تغرس نبتة التغريب.. قنوات فضائية تدعو إلى إسلامٍ مخفَّف، كله إرجاء وتساهل.. مدارس أجنبية، تعلّم الناشئة كل شيء، إلا الدين.. مناسبات وفعاليات اجتماعية، تهدر الأخلاق والحياء.. دُعاةٌ جدُد، يريدون أن يبدلوا كلام الله.. دُعاة آخرون، يفرِّقون الناس عن العلماء، ولا يجمعونهم على الحق المبين.. وإن واجب المسلم أن يتيقظ لمؤسسات الضرار، وأن يخربها بيده، كما فعل النبي ﷺ، وكما أمر، فإن لم يستطع، ولم تكن له سلطة، فلا أقلَّ من أن يخربها بلسانه وقلمه: يفضح مناهجها وطرائقها، ويكشف مواقفها من الدين والقيَم، ويرصد أعمالها وفعالياتها ويعرضها على الناس: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥] ويبيِّن موقف الإسلام منها.

إن خطر مساجد الضرار، ومؤسسات الضرار، وكُتَّاب الضرار، ونوادي الضرار اليوم لا يقلُّ عن خطر قنوات المجون والمواقع الإباحية، فإن كانت هذه توقع الناس في وحل الشهوات، فإن الأُولى توقعهم في حبائل الشبهات، والتي قلَّ أن يسلم منها من تشبَّع بها. اعملوا على نقض بنيانها. حذِّروا الناس منها.

بينوا حكم الإسلام فيها. ارصدوا فعالياتها ومناشطها. اكشفوا كواليس هذه المنشآت الضرارية. أخبروا الناس بآثارها السيئة على الأجيال. إن لم تستطيعوا إزالتها..

فإن لم تفعلوا شيئاً، لا باليد ولا باللسان.. فانتظروا خراب المجتمع؛ وانتظروامعه عقوبة الله.

***

أعياد الجاهلية

الاحتفال بمناسبة ما، بشكل يتكرر دورياً: عيد! هذا تعريف للعيد بلغة يفهمها الجميع.

وقد ذكر الله في القرآن طرفاً من أعياد شركية في سياق الذم، ثم حسم النبي ﷺ قضية الأعياد، فجعل منها عيدين يعظمهما الإسلام ويمحو ما عداهما.

وبالتالي.. فإن أي احتفال يتكرر بصفة دورية، أي له وقت محدد، فإنه عيدٌ جاهلي تنكره الشريعة، وتجعله بدعة في الدين..

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢]. قالوا: هي أعياد الجاهلية.

وعندما يبتعد الناس عن نور النبوَّة فإنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.. فيذهبون إلى ابتداع أعيادٍ جاهلية يسمونها بغير اسمها: مهرجانات سنوية، أسواق سنوية، اليوم العالمي، الأسبوع العالمي... وهلمَّ جرا.

وفي هذه الفعاليات.. يكثر المنكر، ويجاهَر به، وتقلُّ الحشمة، ويقع الاختلاط، ويعلو الغناء، والتصفيق والتصفير، وتتراقص

النساء والرجال، في مشاهد يتفطر لها قلب الموحّد، ويطرب لها الشيطان.. ومن أغواهم الشيطان.

وفي هذه الفعاليات.. يروَّج للأفكار الهدامة والمذاهب المتحللة، ويطَبّع المنكر.. حيث علية القوم يشرّفونه (زعموا) ويستضيفون به أناساً نذروا أنفسهم أبواقاً للمنكر، ويُداس على الفضائل، وتوصم بالتزمت والتشدد والتخلف، فترى الأجيالُ الشابة ذلك ويؤزُّها الشيطان فتنساق نحو القاع اللاأخلاقي، والشيطان يزين لهم ذلك.

والواجب على أهل الإسلام عدم شهود هذه المناسبات كما في الآية السابقة.

بل يجب على أهل الإسلام تغيير هذا المنكر البشع، وإزالته، واستئصاله.

فإن لم يستطيعوا، ولم يكن لهم سلطة، فلا أقل من تواجدهم في هذه الأماكن المعدة للاحتفالات الجاهلية، بغرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. بغرض الاحتساب.. الاحتساب على المحرمات التي حرمها الله تعالى، والاحتساب على الممنوعات التي منع منها ولي الأمر، والاحتساب على اختلاط

الرجال بالنساء، والاحتساب على الأخلاق، وغيرها مما يحتسَب عليه.

كيف يظنُّ أهل الإيمان أنهم في حلٍّ مما يحصل بهذه الأعياد والمناسبات، دون أن ينكر أحدهم بلسانه وقلمه فضلاً عن يده!

كيف خُدِع الفضلاء فظنوا أن الواجب عليهم يتمحور حول عدم الحضور!

كيف تتركون أولياء الشيطان يطبِّعون المنكرات ويغربون المجتمع عن طريق هذه المناسبات والفعاليات.. دون أن يروا منكم حراكاً!

والنبي ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه**»[1]. والله المستعان!!

❊❊❊

(١) سبق تخريجه ص(٣١).

الأئمة المحتسبون -١

على إثر خلاف نشب بين حاكمِ الشام في حينه السلطان إسماعيل، وحاكمِ مصر السلطان نجم الدين أيوب.. تحالف الأول مع الصليبيين ضد الثاني، وسلّم لهم مدينة صيدَاْ وغيرها من الحصون، مقابل أن ينجدوه على الملك نجم الدين.

وهذه من طوامِّ الذين غرتهم الحياة الدنيا.. يبيعون ديار الإسلام للصليبيين، ويحاربون إخوانهم المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثارت حفيظةُ العالِم الرباني العز بن عبد السلام، رحمه الله.. وكان خطيباً ومعلماً ومفتياً.

فخطب الناس من على منبره يوم الجمعة، وذمَّ السلطان إسماعيل وفِعلته الشنيعة التي خان بها الله تعالى والمؤمنين.

وقطع العز بن عبد السلام الدعاء للسلطان من خطبته. وأُخبر السلطان إسماعيل بذلك، ونُقل له المُخبرون ما في الخطبة من ذم وإنكار وعدم الدعاء.

فكتب السلطان مرسوماً بعزل العز بن عبد السلام عن الخطابة والتعليم والإفتاء.

ثم بعث إلى العز بن عبد السلام رسولاً يُغريه ويمنّيه. قال الرسول: تُعاد إليك مناصبك وزيادة.. وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان.

عمل واحد فقط، كفيل بأن يعيد العز بن عبد السلام إلى كل ما كان فيه من الخير.. من تعليم الناس وإفتائهم وخطبة الجمعة: أن يعتذر.. أن يقبِّل يده..

فما كان جواب الشيخ إلا أن قال: والله ما أرضاه أن يقبِّل يدي، فكيف أرضى أن أقبّل يده! يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في واد![1]

إلى موقف آخر.. مع الإمام العالم سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، شارح كتاب التوحيد.. والمعروف بعلم رجال الحديث، حيث يقول: معرفتي برجال الحديث أكثر من معرفتي برجال الدرعية[2]، يشير إلى قوة علمه في الرجال، رحمه الله. وهو من العلماء المعروفين بإنكار المنكرات، ولا تأخذه في الله لومة لائم..

---

(١) العز بن عبد السلام سلطان العلماء، د.فاروق عبد المعطي ص(١٤٥).

(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٢/ ٣٤٢).

لما دخل إبراهيم باشا إلى الدرعية.. وشا بعض المخبرين الشيخ سليمان إلى هذا الطاغية.

فأمر إبراهيم باشا بإحضاره، فجيء به معتقلاً. ومَثل بين يديه.. أراد إبراهيم باشا إغاضته وإهانته، فأمر بعزف المزامير والعود أمامه.. كان الشيخ – بلا شك – في حالة من الإكراه تسمح له بالتقيَّة والصبر.. لكنه أبى!

كان المشهد مريعا.. رفع الشيخ سلمان رأسه بشموخ المؤمن، فأنكر على هذا الطاغية فعله.

وغضب الطاغية إبراهيم باشا، وأذن للوحش الذي بين جنبيه أن ينفلت. فأمر الرماة أن يجرُّوه إلى المقبرة، وهناك أمرهم أن يطلقوا عليه النار دفعة واحدة..

في ثوانٍ.. تمزَّق جسد الشيخ سليمان – رحمه الله – شهيداً وجُمع لحمه المتناثر، وهو ابن ثلاثة وثلاثين سنة، رحمه الله[1].

***

(١) انظر علماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/ ٣٤٩)، وعلماء نجد مواقف ومشاهد للعبد اللطيف ص(٧).

الأئمة المحتسبون -٢

لجأ بنو العباس في تأسيس الدولة العباسية إلى بيع ذممهم للشيطان.

واحتاجوا أن ينزعوا من قلبوبهم خشية الله. واحتاجوا أيضاً إلى استئصال الرحمة من قلوبهم.. بغرض إقامة مملكة بني العباس على أنقاض مملكة بني أمية.

ومما فعلوه بناء على ذلك تصفية بني أمية: الملوك، والأمراء، والنساء، والذرية.. وأعوانهم وأمرائهم.

قامت الدولة العباسية على أشلاء كثيرة ودماء غزيرة..

وجاء الدور على امتحان العلماء وطلب موافقتهم وتأييدهم لهذه الجرائم النكراء.

حين قدم عبد الله بن علي العباسي إلى الشام، كان فيمن استدعاهم من العلماء عبد الرحمن الأوزاعي، رحمه الله.

والأوزاعي هذا: إمامٌ فاق العلماء في زمانه. هل تعلم أنه أجاب في سبعين ألف مسألة[١]؟

دخل الأوزاعي مجلس عبد الله بن علي، ووجد ظالماً جباراً لا يرعى لله حرمة، غير هيَّاب من ارتكاب القتل، وقد قتل في ذلك اليوم من بني أمية أكثر من سبعين منهم بمقرعة يسمونها (الكافركوب).

سأل عبدُ الله بن علي الأوزاعيَ، فقال: ما رأيك في دماء بني أمية؟

أي: هل هي هدر وحلال أم أنها حرام.. هل ما نفعله جائز أم غير مشروع..

قال الأوزاعي: لهم عليك عهد. أي سبق أن بايعتهم وأخذوا عليك العهد بالسمع والطاعة وعدم المناجزة..

قال عبد الله: فاجعلني وإياهم ولا عهد. ما تقول فيهم؟

قال الأوزاعي: هي حرام. حدثني محمد بن مروان، عن مطرف بن الشِّخِّير، عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٧/ ١١١).

قال: «**لا يحل قتل المسلم إلا في ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[١].

أراد عبد الله أن يحجَّ الأوزاعي فقال: أخبرني عن الخلافة: وصيةٌ لنا من رسول الله ﷺ ؟

قال الأوزاعي: لو كانت وصية من رسول الله ﷺ ما ترك عليٌّ رضي الله عنه أحداً يتقدمه «يقصد مبايعة علي للخلفاء الثلاثة قبله».

قال عبد الله: فما تقول في أموال بني أمية؟

قال الأوزاعي: إن كانت لهم حلالاً فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حراماً فهي عليك أَحْرَم.

فأمر عبد الله بالأوزاعي فخرج[٢].

قال الذهبي معلِّقاً على هذه القصة: قد كان عبد الله بن علي ملكاً جباراً، سفاكاً للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمرّ الحق كما ترى، لا كخلق من علماء

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٦٨) كتاب الديات، باب قول الله تعالى (أن النفس بالنفس...) حديث (٦٨٧٨).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٣ – ١٢٥).

السوء، الذين يُحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويقلبون لهم الباطل حقاً، قاتلهم الله، أو يسكتون على بيان الحق[١]. رحم الله الإمام الأوزاعي..

❊❊❊

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٥).

عصابة على الحق

عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لن يزال على هذا الأمر عصابة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك**»[١].

فأين هذه العصابة اليوم عن مشاريع التغريب وصدِّ الناس عن دين الله..

مشروع السعي إلى إفساد المرأة وما يسمونه (تحرير المرأة) الذي تُدَرُّ عليه أموال طائلة، وتقوم عليه دوائر قوية، وعقول مفكرة، تبذِل كل ما يمكن بذله للوصول بالمرأة المسلمة إلى الحضيض، وإلى أن تكون مبتذلة لكل مفتون مريض القلب.

ومشروع إفساد فكر الناشئة وعقولهم الذي ترعاه مؤسسات كبرى وأموال طائلة، بغرض إنشاء جيل لا يحب الانتماء إلى إسلامه، فضلاً عن أن يتمسك به، فتسعى إلى تغيير المناهج

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٨٨) كتاب الفتن، باب لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق. وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير زهير بن محمد بن قمير وهو ثقة.

التعليمية وتفريغ المناهج الإسلامية من جوهر الإسلام، وتفتحه على نظريات الغرب الكافر في أشياء لا تنفعه بل تضره.

ومشروع إفساد شباب المسلمين، عن طريق إغوائهم وإطلاق غرائزهم في الحرام، وتضييق سبل الحلال في وجوههم، حتى لا يجدوا إلا ذلك الباب المشؤوم الذي يتهافتون منه على نار جهنم.

ومشروع تغيير الحكم بما أنزل الله إلى القوانين الوضعية الكافرة الجائرة التي لا تعترف بالله، ولا ترعى حقاً إلا للقوي الماكر.

ومشروع هدم ثوابت الإسلام ومحكماته ومسلّماته، بحجة العولمة والسير في ركاب الأمم.

ومشروع إطفاء الجهاد من شريعة الله، وتربية الأمة على الخور والانهزام، ومحاربة كل من ينادي به ويدعو إليه، ونشر الوشايات بين كتائب الجهاد بغرض التفريق بينهم، وإعانة النصارى واليهود على المجاهدين.

ومشاريع أخرى.. ترعاها الصليبية الحاقدة.. من لهذه المشاريع سوى المحتسبين من الطائفة المنصورة!

من يوقف هديرها سوى الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر!

من يوقظ الأمة من سباتها ويبصرها بهذه المشاريع التي تحاك ضدها، لتجعلها أمة مأسورة مغلوبة مقهورة!

من يرصد هذه المشاريع وأدواتها ووسائلها وفعالياتها ومناشطها والقائمين عليها!

من يكتب المقالات، ويؤلف الكتب، ويرقم البيانات، ويحرِّر الرسائل في مخاطبة أهل الشأن.. بهذه المشاريع!

من يعظ الشباب في مواقعهم، ويذكرهم بالله! من يفعل ذلك سوى عصابة مؤمنة محتسبة تقوم بأمر الله وتنذر نفسها لله.

هؤلاء هم خير الأمة.. ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

***

والله غالب على أمره

أُقدِّرُ نظرتك الواقعية، وقراءاتك في ملف المنكرات المنتشرة في مجتمعات المسلمين.

أعلمُ أنك تعاني مرارة الرصد والتحليل.. وأعلم أنك تتجرع الأسى من واقعك.. وقد علمتُ بأنّك تؤذى، وتهان، وتُظلَم، ويُضيَّق عليك نتيجة قيامك بأمر الله واحتسابك على هذه المنكرات، والتي يقف خلفها أساطينُ من أهل الشهوات بخيلهم ورجلهم.. وسمعتُ أن إخواناً لك قد أُلقوا في غياهب السجون، صابرين محتسبين.. أقدر نظرتك الواقعية.. لكني أدعوك إلى أن تُحلِّق بقلبك ووجدانك إلى وعد الله .. الله العظيم.. الله القادر.. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

هذا وعدٌ من الله، ولو شاء لجعله اليوم، ولكنه أخّره لحكمة يريدها.

وعدٌ بأن يستخلف الله المؤمنين في الأرض وأن يمكّن لدينهم الإسلام، بعد أن يطارَد ويحارَب ويكبَت..

ألستَ ترى أن الدين ينتشر في الناس وفي العالم رغم الحرب عليه؟

ألا ترى بعينيك تصديقاً واقعياً لقول الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف:٨ - ٩]؟

ألست ترى سهمَ الإسلام في صعود، ونجمَه ظهور؟

ألم ترمق عيناك أولئك الفتية في الملاعب وهم يرتصون للصلاة جماعة؟ بعد أن كانوا في عقود ماضية يجلسون الساعات دون مبالين بإقامة الصلوات!

ألم تسمع بأن في بنات المسلمين اليوم من تحفظ الصحيحين؟ فضلاً عن الشباب.. ألم تعلم بأن جيلاً ناشئاً يحفظ كل سنة عدداً من أجزاء القرآن، وبعضهم يختمه؟

إنَّ ما يمرَّ بنا في حياتنا اليومية مما يثلج الصدر لهو إيذانٌ ببزوغ فجر جديد للإسلام، تعلو فيه الطاعة، وتسفل فيه المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر.

وإنه ليس من الواجب علينا انتظار ذلك الفجر الوضَّاء، وإنما الواجب علينا أن نكون حملة مشاعل للخير في ليل أمتنا وفي ظلام مجتمعنا.

إن المحتسب المؤمن المتجرد ليشعر بمسؤوليته تجاه دينه، ويقوم بأعباء هذه المسؤولية خير قيام حسب استطاعته، مهما اشتدت به الكروب والخطوب، إلا أنه ينظر إلى وعد الله بيقين أنه قادم لامحاله.. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم:٤-٦].

أيها المحتسبون! لا تفتروا عن السير في هذا الليل. فإنّ أمامكم صبحٌ قريب.

❊❊❊

لم ننته بعد!

بعد هذا التطواف في مواضيع تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اجتهدت في اختيار موضوعاتها كما اجتهدت في اختصارها؛ لا أجد ما أقوله إلا أن أدعو الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يعيننا على القيام بأمره، ويتقبل منا ومنكم صالح القول والعمل.

ولم أجدْ مسوِّغاً لأختم موضوعات هذه الرسالة، فموضوعاتٌ كثيرة تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم أطرُقها ولو من بعيد. فأحببت أن يكون الموضوع الأخير هو فاتحة تلك الموضوعات الكثيرة والمتشعبة عن شعيرة الاحتساب، فللاحتساب فقهٌ وآداب وأحوال ومقاصد ونماذج وقواعد وتطبيقات.. هي لك أيها القارئ الكريم! ابحث عنها واسبر غورها.

أوصيك بكتب السنّة، وسيرة الصحابة والتابعين، وأحوال العلماء المخلصين.. ستجد فيها ما يقشعر له جلدك ويحار فيه عقلك. بل سيستيقظ فؤادك.

جالس المحتسبين من العلماء والصادقين.. تباحث معهم، وتعلَّم منهم الإيمان والتجرُّد والعزَّة والتضحية في سبيل الله، وحب هذا الدين وحبّ الناس والرحمة بهم.

أدعوك.. أيها القارئ الكريم! أن تعيد النظر والتفقه في مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء نصوص الكتاب والسنة، مستصحباً الجانب التطبيقي لدى الصحابة الكرام والتابعين، فهم أحرى بالصواب.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رُشد، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر. آمين.

❊❊❊

المراجع

١- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٢- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٣- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.

٤- الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الفكر.

٥- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، تحقيق مكتب التراث الإسلامي، نشر دار المعرفة، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٦- سنن ابن ماجه بشرح السندي وحاشية البوصيري، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٧- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار القلم، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

٨- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

٩- صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

١٠- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

١٢- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

١٣- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٤- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٥- صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

١٦- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر ط١٤٠٨هـ.

١٨- تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفيحاء، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٩- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، الإصدار الثاني، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ

٢٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢١- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية.

٢٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي بن حجر، قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا عبد العزيز بن باز، وقام بإخراجه وتحقيقه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

٢٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٥- معالم السنن شرح سنن أبي داود، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٦- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية.

٢٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير

الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية.

٢٨- شرح رياض الصالحين، العلامة محمد بن عثيمين، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٣٥هـ.

٢٩- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٠- البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق أحمد بن عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، ١٤١٤هـ.

٣١- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة.

٣٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الفكر.

٣٣- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

٣٤- علماء نجد مواقف ومشاهد، عبد العزيز العبد اللطيف، مصوّر.

٣٥- العز بن عبد السلام، الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣٦- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم العاصمي.

٣٧- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي، دار الحديث.

٣٨- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٣٩- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقام، ط الأولى ١٤١٩هـ.

٤٠- زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ.

٤١- الآداب الشرعية، محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق

شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٤٢- الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية على الشبكة العنكبوتية.

❊❊❊

الفهرس

مقدمة ٥
المقتُ الكبير ١٥
مجتمعٌ كالسفينة ١٨
القائم في حدود الله ٢٢
مجتمع من الدرجة الثالثة ٢٦
متى يعمُّ العقاب؟ ٢٩
بما كسبت أيدي الناس ٣٢
جريمة الصمت ٣٦
ربّكم يغار! ٣٩
أعظم الجهاد ٤٢
مجتمعٌ ملعون ٤٥
ليسوا سواء ٤٨
طائفة ناجية ٥٢
احتسابٌ في البيت ٥٦
وفي السوقِ احتسابٌ ٦٠
وفي المسجدِ احتسابٌ ٦٤
وفي الطريقِ احتسابٌ ٦٧

وفي الجهادِ احتسابٌ ٧٠
وفي المجالسِ احتسابٌ ٧٤
وفي العزاء احتساب ٧٧
احتساب على وليِّ الأمر ٨١
احتسابٌ على العُبّاد ٨٥
احتسابٌ على النساء ٨٩
أضرّ فتنة على الرجال ٩٢
احتسابٌ في كل الظروف ٩٥
مدارج الإنكار ٩٨
مشروعٌ مجتمعيٌّ ١٠١
تكليفٌ ربانيٌّ ١٠٤
مؤمنةٌ تحتسب ١٠٧
هل نستشير؟ ١١١
زيّنوا الاحتساب ١١٤
مع الرفق أيضاً ١١٧
الموعظة في الإنكار ١٢٠
واغلظ عليهم ١٢٣
الإثارة.. أسلوب ناجع ١٢٧
استعينوا بالله واصبروا ١٣٠
احتساب جماعي ١٣٤

منافذ الشر ١٣٨
الاحتساب بوعي ١٤١
يقظة التوحيد ١٤٤
أعرف المعروف ١٤٦
مكافحة الظلم ١٤٩
أم الخبائث ١٥٢
هل المحتسبون مرابطون؟ ١٥٥
الاحتساب الوقائي ١٥٨
مؤسسات الضرار ١٦١
أعياد الجاهلية ١٦٤
الأئمة المحتسبون -١ ..... ١٦٧
الأئمة المحتسبون -٢ ..... ١٧٠
عصابة على الحق ١٧٤
والله غالب على أمره ١٧٧
لم ننته بعد! ١٨٠
المراجع ١٨٣
الفهرس ١٩١

❊❊❊